وجهاً لوجه

مرت من جانب المصباح الوحيد في المحطة الصغيرة، وكانت أسراب أوراق الحور الندية تتطاير باستمرار وسرعة. ففي تلك الليلة العاصفة فارقت أشجار الحور الكثير من أوراقها، وهي تقف مستقيمة ورشيقة كقضبان مستقيمة، وتتمايل بمرونة تحت تأثير الرياح الخفيفة، وكان حفيف قممها العالية يذكر بهدير أمواج البحر البعيد.

مظلمة كانت تلك الليلة في شعاب الجبل الأسود، ومظلمةً جداً في منطقة المحطة الصغيرة في أسفل الجبل. ومن وقت لآخر يحدث أن تنقشع الظلمة قليلاً بفضل النور وضجيج القطارات، ولكن عندما تتابع القطارات مسيرها، تعود الظلمة إلى المحطة الصغيرة من جديد، وتبدو خالية من السيارات كلياً.

تتعاقب القطارات في طريقها نحو الغرب. والآن جاء قطار طويل مزود بعربات إضافية. وكان الغبار يغطي العديد منها. ومن فتحة أتون المحرك البخاري ارتفعت شعلة حمراء ملتهبة، وعند اصطكاك طاسة التصادم توقفت المقطورات. ولم يخرج أحد منها في هذه المحطة الصغيرة، ولم يسأل أحد: "أية محطة هذه؟". كان الركاب متعبين من السفر الطويل، نائمين في الفرغونات. وفقط كانت محاور العجلات، التي لم تبرد بعد تصدر أصوات صريرها المزعج.

وعندما أشار المراقب المناوب في المحطة بالمصباح، الذي كان يحمله بيده، تحرك بصعوبة وهو يطأ بجزمتيه الثقيلتين الأرض،

ثم ركض باتجاه رأس القطار. ومن الفرغونة قبل الأخيرة أطل المراقب المكلف بمتابعة العمل اليومي. وخلف كتفه لمعت بضبابية حربة بندقية. مد المراقب رأسه، وأخذ ينظر بانتباه، متيقظاً في الظلمة، وهو يصغي السمع لكل صوت وحركة. وفي المضيق، كما يحدث دائماً، أخذت تعصف رياح حادة. خلف شارع المحطة، وعند المنحدر الانكساري كانت مياه الشلالات تصدر ضجيجاً مميزاً. وعلى وجه المراقب اليومي وقعت ورقة حور باردة، وكأنها كف بشري مرتجف لامس خده بهدوء. تفاجئ المراقب، وهو ينظر إلى داخل الفرغونة. ثم نظر من جديد: لا يوجد أحد كان، لا يوجد إلا الرياح المتلاحقة في هذه الليلة الليلاء...

قبل دقيقة، وكظل محتال سراق، انفصل عن القاطرة إنسان يرتدي معطفاً، واتجه نحو الشجيرات عند القناة، واختفى بينها. انطلقت صفارة قوية، فانطلق الرجل المختبئ بين الشجيرات هارباً، وبعد قليل من الوقت هدأ، وانبطح فوق الأرض، مدركاً أن الحارس المناوب قد أعطى بصفارته إشارة للمغادرة. فتحركت الفرغونات، إلى الأمام، متابعة طريقها الطويل.

وفوق الجسر، أخذت القاطرات تطرق في فقرات إيقاعية خاصة فوق مفاصل الجسر. ثم دخل القطار في نفق طويل. وأطلق صوت صفير قوي، مودعاً بكل ما يملك من قوة في حنجرته.

عندما هدأت الأصداء بين الصخور، كما، وبعد انتظار، هدأت الغربان الفزعة فوق أشجار المحطة، وقف ذلك الشخص المختبئ بين الشجيرات، وبدأ يتنفس بصوت عال ومتسارع وكأنه كان يجلس تحت الماء لفترة طويلة، وكاد يختنق.

لم يعد يسمع هذا الإنسان وقع صدى طرقات عجلات القطار البعيدة، ونادراً ما كانت تصل إلى السمع.

تنفست أشجار الحور بشكل عاصف، ومن جهة الجبال جاءت رياح تحمل روائح المراعي الخريفية.

ظلماء كانت تلك الليلة في ممر الجبل الأسود الضيق...

⁂

منذ ذلك الوقت، الذي أنجبت فيه سعيدة، أصبح رقادها شفافاً جداً، كنوم الطيور. قامت سعيدة بتغيير ألبسة الطفل المبللة، ووضعت بدلاً منها الناشفة. وكانت تجلس تحت نور الزبالة المشتعلة، ليس بعيداً عنها، وهي تستند إلى جانب البيشك[1] الهزاز. ثم أخرجت ثديها الأسمر الناعم من تحت غطاء خارجي، وانحنت ترضع طفلها بكل حنان.

وفي الزاوية رقدت حماتها، وهي تلتحف بالبطانية القطنية. كانت عجوزاً، ضعيفة، تسعل وتئن كالنعجة المريضة، ولديها من القوة ما يكفي للصلاة فقط. وحتى أنها أصبحت تتكلم في أحلامها وتتمتم بآيات وصلوات قبل نومها: "أيها الخالق، أوكلك، وأسلمك مصائرنا جميعاً...". وعندما تذهب سعيدة إلى عملها، تقوم العجوز بالعناية بحفيدها. وهي تقدم هذه المساعدة على الرغم من آلامها، وخاصة عندما كانت تحمل الطفل الرضيع إلى الحقل كي تقوم الأم بإرضاعه. وعلى الرغم من أن العجوز كانت تعاني من سوء في صحتها بشكل عام، وخاصة في جهازها التنفسي، وكانت يداها ترتجفان بوضوح، إلا أنها لم تكن تشكو لأحد كان عن معاناتها: من سيقوم بمساعدة كنتها في تربية الحفيد الأول، علماً أنها الكنة الوحيدة؟

[1] البيشك - كلمة قرغيزية تعني سرير الطفل الهزاز. - (المترجم).

لقد أصبح الوقت في الهزيع الأخير من الليل، وما زالت لا تعرف النوم. وهل كان من الممكن لو أنها أرادت أن تنام، أن تغفو ملء جفنيها؟ ومن كان بإمكانه أن يفكر، ومن كان بإمكانه أن ينتظر، وأن يعيش في مثل هذه الأوقات؟ لقد ظهرت كلمات جديدة في اللغة لم تكن تسمع بها من قبل: "ألماني"، "فاشيست"، "بلاغ"... وفي كل يوم، وهذه حقيقة أبدية، كان الرجال يتوجهون من القرية، وهم يحملون الصرر والأكياس على أكتافهم، يسيرون إلى الطريق البعيدة، ويكتظون في العربات، ويصرخون في الوداع: "إيه، يكفيكم ذرف الدموع!" تتحرك العربات، يلوح الرجال بأيديهم وهم يرفعون قبعاتهم: "كوش! كايير، كوش!..."[1] أما النساء النائحات، والأولاد الباكون يلوحون بأيديهم، وهم يجتمعون فوق التل، بالقرب من القرية، حتى تختفي العربات عن الرؤية. ثم يتفرق المودعون، كل إلى بيته صامتين قانتين. فماذا سيكون فيما بعد، وماذا ينتظرهم لاحقاً؟ وهل سيعود العسكر[2] من الحرب؟

في العام الماضي، خلال الصيف، عندما تزوجت ابنة الراعي سعيدة من زوجها الحالي، وأخذت تعيش مع أسرة أهل زوجها في بيت واحد، لم يكن لدى زوجها بيت خاص به: لقد باشر ببنائه، ولكن ما زالت الجدران بلا كسوة خارجية ولا كسوة داخلية، وما زال السقف بلا الطين اللازم. حبذا لو تعود تلك الأيام! ولقد جهزوا بيتهم بالتدريج، وحسب الظروف. وهكذا، أخذت سعيدة تنعم بدفء خيوط الأشعة لسعادتها القصيرة. وهي تتذكر جيداً، كيف أخذت من القناة

---

[1] كوش، كايير كوش - كلمات قرغيزية تعني - إلى اللقاء، وداعاً. - (المترجم).

[2] كلمة العسكر العربية تستخدم في اللغة القرغيزية، أصولاً حسب أحرف اللغة المحلية، إذ تستخدم الكثير من الكلمات العربية في آسيا الوسطى وفي قرغيزستان خاصة. - (المترجم).

مع زوجها الماء الدافئ، وكيف قاما معاً بخلط التبن مع التراب، وصب الماء عليه. ثم شمرا عن سيقانهما وأخذا يجبلان الطين حتى تماسك، وأصبح الوحل يتمطق تحت أرجلهما. لم يكن هذا عملاً سهلاً، حتى أن فستانها المصنوع من قماش الساتان فقد لونه الأساسي، نتيجة العمل الشاق تحت أشعة الشمس، خلال عدة أيام. ولكنهما لم يشعرا بالتعب. وبدا الزوج سعيداً، وكان يلاطف زوجته، ويمسكها من يديها القويتين السمراوتين، ويضمها لصدره، ويمازحها بأن يدوس على رجلها تحت الوحل الطيني. كانت سعيدة تهرب منه ضاحكة وهي تركض حول الحفرة. وعندما يلحق بها زوجها، كانت تتظاهر بالغضب:

- يكفي، اترك اللعب الآن! فها هي أمك تنظر إلينا، أليس من العيب، أن نلعب كالأطفال؟ - أما في داخلها فلقد كانت مسرورة للغاية، وكانت تختفي في بعض الأحيان خلف ظهر زوجها، وتضمه لثوان إلى صدرها وهي تقول: - يكفي لعب، انظر إلى وجهك كيف امتلأ بالطين، فمن أصبحت تشبه!

- أما أنت، كيف حالكِ؟ انظري إلى نفسكِ أولاً!

كانت سعيدة عادة تذهب وتخرج مرآة صغيرة مدورة من جيب السترة الموضوعة تحت الشجرة. فهي إلى جانب عملها بلا كسل، كانت تعرف كيف تحافظ على حيويتها وأنوثتها باستمرار. وكانت تنظر إلى نفسها في المرآة، وتعجب من ذاتها، كيف يكتسب وجهها عادة الاحمرار في حالة الخجل،ولا تنزعج من الطين، الذي علق على وجهها خلال العمل. فالطين لا يسيء إلى الجمال - وخلال ثوان من الممكن غسله. وكانت تشعر سعيدة بالسرور، وهي تنظر إلى صورتها في المرآة، فطالما الصحة جيدة والأسرة بخير، فلا هم من الطين!

عند المساء، وعندما أنهوا العمل قامت بالاستحمام في مياه

الساقية النظيفة. وخلدت إلى الراحة واضطجعت في السرير. ولكن جسمها قد احتفظ ولفترة من الزمن برائحة وبرودة المياه الجارية في الساقية. وفي هذه الليلة الداكنة الزرقاء بدت القمم الثلجية للجبال كالصدف المعتم العتيق، وفوق الفصفصة، خلف الساقية، أزهرت نبتة النعنع ذات العطر الخاص. وفي مكان ما بالقرب منها، وبين الأعشاب، أخذ يغرد طير سمن. وهنا شعرت سعيدة باحساس خاص لم تشعر به خلال حياتها كلها، ملأها بالاطمئنان والسرور والجمال في نفسها وفي كل ما يحيط بها، وبحياتها الأسرية، فاقتربت من زوجها أكثر، ووضعت يدها بلطف على رقبته. وكم تضمنت هذه اللحظة من أحلام زاهية لحياتهما! كيف سيتممان بناء بيتهما، وماذا سيعملان لاحقاً، وأية أغراض سيشترون حتى تتوفر لهما الراحة، وكيف سيدعوان ضيوفاً إلى حفلة في بيتهما الجديد، بمن في ذلك أهلها، وأية هدايا سيوفران لهم قبل قدومهم... كل هذا بعث السعادة في عالمهما. ومر الزمن مندفعاً بسرعة حتى لم يلحظ كل منهما كيف ينتهي النهار ويأتي الليل، وبالعكس.

عندما جهزا الجدران الخارجية، ابتدأت الحرب. فقاما، وعلى طرف من السرعة بعجن الطينة ومدها على الجدران في داخل البيت. وهنا أخذت القيادة العسكرية تنادي الشباب إلى خدمة الوطن.

من غير الممكن أن ينسى الفرد ذلك اليوم، ولن تخمد مصيبة الوداع طويلاً، وكأنها كانت البارحة. بينما قام كل سكان القرية بوداع المتطوعين إلى مسافة من القرية، كانت سعيدة تخجل جداً من الناس، فلم تتمكن من توديع زوجها كما كانت ترغب: إنها استقرت في هذه المنطقة منذ فترة قصيرة، وهي شابة صغيرة، فمدت

يدها على عجل لزوجها، وتراجعت للخلف، وهي خجلة من أن يرى الناس دموعها، وهكذا افترقا. وعندما اختفى الرجال في السهول البعيدة، وخلف التلال، شعرت سعيدة بمرارة الفراق لدرجة كبيرة، وأدركت حتى الألم القاسي، أنه كان عليها أن تسمع دقات قلبه، وأن تقذف بالخجل بعيداً أمام كبار السن، وربما ستكون هذه المرة الأخيرة، التي تضم فيها زوجها بحرارة، وأن تطبع القبلات على وجهه ورقبته، وأخذت سعيدة تؤنب نفسها، وتندم على سخف هذا الخجل! وحتى لم تتمكن من أن تهمس له في أذنه الجواب عن استفساراتهما، التي دامت عدة أسابيع: يبدو أنها تأكدت من حملها، وندمت أنها لم تزف له البشرى، ولكن الوقت أصبح متأخراً، فمن الصعب إعادة ما فات. وهناك، في الطريق، كان الغبار يفرش الدرب. ومنذ تلك اللحظة في تلك الأيام القاسية، وبسبب كل ما لم تتمكن من تحقيقه سابقاً، أخذ الدم يغلي الآن في عروقها، وكأن حجراً ملتهباً كان يستعر في صدرها بصورة دائمة.

انطفأ السراج، كانت تشفق على الطفل، ولا تريد أن تحرمه من الثدي، الذي أحبه، وهو قد خلد للنوم الهادئ، والحلمة في فمه، ويده فوق صدرها. وأحياناً كان يتحرك ولكنه كان يتمطق بشفتيه ويعود للنوم. وذهبت الأفكار عند سعيدة من هنا إلى البعيد.

ومن جهة الساحة، أخذ إنسان ما يدق على النافذة. نهضت سعيدة بسرعة، ومررت رأسها حذرة، فالقلق كان واضحاً عليها. ومرة أخرى، تكرر القرع على النافذة بهدوء، وبشكل متقطع. سحبت حلمة ثديها من فم ابنها، وغطت صدرها، ثم قذفت عن كتفيها الفروة، وبخطوات خفيفة وحذرة اقتربت من النافذة، وهي تزرر أزرار

فستانها فوق صدرها بحركة لاشعورية، ولكنها لم تتمكن من رؤية أي شيء من النافذة المنخفضة، والمطلة على ساحة المنزل، حيث تنتشر الظلمة. حركت سعيدة كتفيها من الحيرة، والبرد، وترامت لمسامعها أصوات حفيف ورقة علقت على الباب.

- من هناك؟ - سألت سعيدة بصوت ملؤه الشك والخوف.

- أنا... افتحي... يا سعيدة! - أجاب رجل بصوت أبح بإلحاح ونفاد صبر.

- نعم، ولكن من أنت؟ - أعادت سعيدة السؤال، غير واثقة، وابتعدت نحو الزاوية وألقت نظرة إلى ابنها بخوف وهلع، وهو ينام بهناء في سريره.

- أنا... هذا أنا يا سعيدة، افتحي!

انحنت سعيدة إلى النافذة، وصرخت بصوت خافت، أمسكت رأسها بكلتا يديها، وهرعت راكضة بسرعة إلى الباب.

مدت يدها في الظلمة إلى قفل الباب، وفتحت الباب بقوة، وبدون صوت ألقت بنفسها إلى صدر الرجل، الذي يقف أمامها.

- ابن حماتي! زوجي العزيز! - تمتمت بهمس مضغوط، حسب العادة، ولم يعد بإمكانها أن تصبر، أو تقهر نفسها، فنادته باسمه: "إسماعيل!" بكت سعيدة. أية سعادة، يا لها من سعادة غير منتظرة - زوجها عاد حياً وسالماً! ها هو يقف أمامها، إسماعيل بذاته، وتفوح منه رائحة الماخوركا[1] القوية. أما قبة المعطف الحربي فقد كانت خشنة تخدش وجهها، وكأنها من جلد وحش ذي شعر خشن جداً.

---

[1] الماخوركا - نوع من الدخان، وهو ورق تبغ مفروم، وتلف السجائر باليدين كالتبغ العربي. - (المترجم).

ما به يلتزم الصمت؟ أو أنه لم يصدق ما تراه عيناه من فرحة؟ كان يتنفس متثاقلاً كالأعمى، يبحث بسرعة، يحيط كتفيها بيديه، يمسح على رأسها.

- لندخل إلى البيت! - قال إسماعيل بسرعة، ضمها إلى صدره، تجاوز العتبة. وفقط الآن، هدأ روع سعيدة قليلاً، وقالت:

- آه! لماذا أنا غبية لهذه الدرجة؟ سوينتشو[1] للأم: ابنها قد عاد!

- انتظري! أخذها إسماعيل من يدها. - توقفي، من عندنا في البيت؟

- نحن لوحدنا، وابنك في السرير!

- توقفي، أعطني فرصة لأستريح قليلاً!

- أمك ستحزن...

- انتظري، يا سعيدة!

لم تصدق سعيدة أن زوجها قد عاد، فطوقته بذراعيها بقوة، والتصقت به بحنان وحرارة، ولكنهما، في الظلمة لم يشاهد أحدهما وجه الآخر بوضوح، وهل من الضروري ذلك؟ فهي كانت تسمع كيف، وتحت جوخ المعطف كان يدق قلبه دقات متسارعة، وقوية، وبنبضات متفاوتة. وكان ذلك ليس في الحلم، بل في الواقع. وخانها الصبر فقبلته وأحست كم كانت صعبة حياة الجبهة، حتى الشفاه خشنة وقد جففها الهواء، وحرقتها الشمس.

- لقد اشتقت إليك كثيراً، متى عدت - ها؟ هل عدت بصورة نهائية؟ - أخذت سعيدة تسأل بلهفة.

رفع إسماعيل يدي سعيدة عن كتفيه، وقال هامساً:

---

[1] سوينتشو - كلمة قرغيزية تعني - بشرى سارة - (المترجم).

- الآن نزلت من القطار في المحطة... انتظري قليلاً، سأعود الآن...

خرج إسماعيل إلى ساحة المنزل، ونظر في كافة الجهات حول المنزل، ثم توجه إلى ملحق البيت وعاد بعد دقيقة وفي يده بندقية. حرك برجله كومة حشائش يابسة، وأخفى البندقية تحتها، حتى لم يعد يظهر منها أي شيء.

- ماذا تعمل؟ - استغربت سعيدة. - ضعها في الغرفة!

- اهدئي، اصمتي يا سعيدة!

- لماذا؟

لم يجب إسماعيل عن سؤالها، وأخذها من يدها:

- لنذهب، أريد أن أرى ابني.

في كل يوم تقريباً، وعند المغيب، وحلول ظلمة الغسق المسائي كانت تعود سعيدة قادمة من أماكن بعيدة، تنمو فيها الأعشاب والحشائش البرية. وتجمع سعيدة هناك هذه النامیات وتصنع منها حزمة كبيرة تحملها على كتفها، وتعود بها إلى القرية. وفي بعض الأحيان تذهب إلى الأماكن، التي ترعى فيها الأغنام، وحيث تبيت لياليها، وتجمع فضلاتها، التي تصلح كوقود، وتضعها في كيس، وتحملها على كتفها، أو على ظهرها، وعندما تتعب، وتصبح قريبة من القرية، تجلس على رابية للاستراحة قليلاً، في آخر نقطة قبل المنزل، إذ تحمل أنشوطة الحبل، الذي تضعه فوق صدرها، وتمسك به الحمل، الذي على ظهرها. تتنفس الصعداء بعد المسير المضني تحت عبء الحمل. وتلقي ظهرها إلى حملها. حسناً أن يجلس الإنسان هكذا

لدقيقة، وينسى كل شيء، وينظر إلى السماء بهدوء، كما ينظر إلى القرية في الأسفل، ويسمع صوت عجلات العربات، وهي تقرقع على الطرقات، ويسمع أصوات الخيالة، الذين يذهبون ويعودون بأعمالهم، ويحمل الهواء الرائحة المعروفة للدخان الناجم عن احتراق الكيزيكي[1]، وقصب الذرة، والذرة المحترقة.

ولكن اليوم لم تتمكن سعيدة من الاستراحة كما يجب، فلقد جاء صفير القطار من بعيد. فنهضت سعيدة، وشدت الحبل ووضعت الحمل على ظهرها، ثم سارت مسرعة، منحنية إلى الأمام تحت ثقل الحمل. وصفير القطار ذكرها بموضوع هرب إسماعيل، فقلقت جداً، وأخذ قلبها يدق بسرعة مع بعض الألم.

مشت سعيدة في الشارع، وهي قلقة جداً، عسى أن لا تلتقي أحداً في الطريق ويستوقفها، ويفتح حديثاً معها كعادة أهل القرى. "عسى أن تنتهي قريباً الليالي القمرية" - أخذت تفكر. وساعتئذٍ لن تعود وتذهب لجمع الوقود والقش. وستحضّر لإسماعيل طعاماً، وتأخذه له في المخبأ. "عسى الله أن لا يشك أحد!" فالنساء عادة ما يتوجهن إليها بالسؤال عن المكان، الذي تحضر منه القش. ولكن سعيدة كانت ترفض أن تذهب معهم: فهناك كان يختبئ إسماعيل. ففي الظهيرة ينام في مغارة، وفي الليل يعود إلى البيت. وعندما يأتي، كانا يغلقان النوافذ، والأبواب. وكانت سعيدة تحتاط حيث تخبئ تحت الكانول[2] في حفرة خاصة بعض أغراضها، وتغطيها بالحصيرة واللباد.

---

[1] الكيزيكي - كلمة قرغيزية - تعني مخلفات الماشية، التي تجمع، وتجفف على شكل أقراص أو كرات ثم يتم إشعالها في مواقد الشتاء. - (المترجم).

[2] كانول - كلمة قرغيزية تعني مقعد، مجهز من خشب أو حديد، حيث تطوى اللحف والبطانيات واللباد وتوضع عليه لحفظها من الرطوبة فوق الأرض. - (المترجم).

وهكذا تعيش سعيدة وحماتها العجوز، التي لم تتمكن من التعود على مثل هذه الحياة - فهي ثقيلة السمع، ولكنها تجتهد، وتضغط على نفسها حتى تسمع كل شيء، حتى حفيف الأشجار. وفي كل دقيقة، كانت تنتفض ملؤها الشفقة والرعب، تنظر إلى إسماعيل بعينين حزينتين، تذرفان الدموع باستمرار ويتحول بياض عينيها إلى بقعتين حمراوين في وجهها. فهي كما يبدو تفكر في قرارة نفسها، وهي تتنهد: "إيه، يا بني، أنت ولدي الوحيد، آه، يا بني المسكين!".

يبدأ إسماعيل بالسؤال أحياناً، كيف تجري الأمور في القرية؟ ولكن، ليس لهذا أي معنى. وهو محتار في أمره، ولا يجد لنفسه مكاناً، وغالباً ما يجلس صامتاً، متجهماً، تعباً مهدل الكتفين، وينظر بفارغ الصبر إلى القِدر، الذي يغلي بشدة. ويجب إطعامه على طرف من السرعة، حتى يعود إلى مغارته قبل طلوع الفجر. فكانت سعيدة تجهز بعض الأكل عند الموقد وتفكر بكل الأمور التي تهمها، فيؤسفها وضع إسماعيل، وتخاف أن تفقده، وتخاف أن تبقى وحيدة مع العجوز المريضة، وولداً يصبح يتيماً، قبل أن يمشي على رجليه. ولقد تغير إسماعيل كثيراً عن ذي قبل. ففي المغارة لا يرى الشمس مطلقاً، ولا يتنفس الهواء الطلق، وأصبح وجهه يشبه وجه الأرض، وكأنه أصبح قطعة منها، وعلى وجنتيه الهابطتين، تنمو لحية غير منتظمة، بل مبعثرة. وينظر في بعض الأحيان بحسرة يائسة، وعجز كلي عن فعل شيء ما، كالفرس المنهكة من الركض والعمل. وفي بعض الأحيان تتشنج عيناه، وتتحول الحدقتان السوداوان إلى مركز لمعان ثاقب في شقي الجفون، وكل نظرة تحتوي على وحشية

وكراهية مخفيتين، وتشحب الشفة السفلى، التي يعض عليها بشدة. يرتعب الإنسان عندما ينظر إليه، وهو في هذه الحالة! وفي هذه الدقائق ينسى إسماعيل كل شيء، حتى ابنه، الذي يحمله على يديه.

هل كان إسماعيل هكذا في الصيف الماضي؟ لقد اسمر جداً من الشمس، وأصبح جلداً وعظماً، كالخرنوق، يعمل باستمرار بلا راحة، ولا يعرف التعب والملل. في تلك الأيام كان مع زوجته يبنيان بيتهما. وقتها كان كل شيء واضحاً وبسيطاً في حياتهما. لم يكن هناك ما يزعجهما ويقلقهما. وكان عليهما أن يعيشان ويعملان لبناء العش الأسري. "إننا سنقوم ببناء البيت، وسأشعل البخور في أرجاء البيت، - عن العين الغريبة" ، - هكذا كان يحكي إسماعيل، ويكررها أكثر من مرة، وهو يعمل في أطراف الساحة. أما الآن فهو هارب من الخدمة العسكرية. وها هو الآن، يأتي إلى بيته الخاص، خلسة، في الهزيع الأخير من الليل، وبعد أن يأكل، ويلقي نظرة إلى ابنه يسرع للخروج.

تجتهد سعيدة أن لا تلاحظ هذا. وفي تلك الليالي المتباعدة، عندما يأتي زوجها، ويجلس أمامها، وهو يحمل ابنه على يديه، ترغب أن تنسى لدرجة الموت كل شيء، وتنسى كل ما يتعلق بإسماعيل، بصورة كاملة، ولو لساعة واحدة، وتكون سعيدة كما يجب.

"ليكن هو هارباً من الجندية[1]، ليكن!" - تحاول أن تهدئ من روعها، وهي ترق العجين فوق اللوح الخشبي. - الرجل يعرف كيف له

---

[1] اعتبرت مسألة الهروب من الجندية في الاتحاد السوفيتي أيام الحرب العالمية الثانية خيانة للوطن، وحكم على الهاربين بأحكام قاسية، منها الإعدام، ومنها الأشغال الشاقة مدى الحياة. - (المترجم).

أن يتصرف. فعادة كان يقول إسماعيل: "لكل إنسان حياته، وطريقه، الذي يحدد مصيره، وفي هذه الحرب يسلم كل من يجتهد للحفاظ على نفسه". فأنا عاجزة عن تعليمه. وحسب قناعته، هكذا عليه أن يعمل، فهو يقدر الأمور أحسن مني. وهل لي أن أقوم بإبعاده عني بيديّ الخاصتين؟ فطبعاً، لا، ولا بأي ثمن! فهو يقال عادة: "فليكن، ما يكن، ولكن لن أضع صدري أمام الرصاصة من تلقاء نفسي. ولو سأعيش يوماً واحداً، فهو من نصيبي - وأنا في بيتي. فماذا عليّ أن أعمل هناك، في الجبهة، في مكان ما، من نهاية الدنيا؟ لم يرى لا الآباء، ولا الأجداد حتى في الأحلام تلك الأصقاع... فليذهب من يشاء إلى هناك، أما بالنسبة لي فليس لي من ضرورة للقيام بهذا. ولا أرغب بذلك... وحتى لو ذهبت إلى هناك، فماذا سيتغير؟ فأنا وحدي لن أقضي على العدو، وأتصور أنهم ليسوا بحاجة لي...".

"بالطبع من الممكن أن يستغنوا عنه. فبإسماعيل وحده لا تنضب القصعة. هرب من الجندية، هل خرب الكون من هذا؟ فهو لم يلحق الضرر بأحد من خلال تصرفه هذا. فليحافظ على روحه كما يرغب، وهل هو راغب يا ترى بأن يستشهد؟.. فعسى الله أن يحفظه، ونمضي الشتاء هنا، وفي الصيف، ومنذ بدايته سيسمح للناس التوجه إلى المنحدر، وسيذهب إلى تشاتكال[1] إلى أقاربه هناك. فهناك، كما يقول إسماعيل، لا أحد يهتم بما يعمل الآخر. ولا يدقق أحد بخصوصيات الآخر... فلنذهب إلى أبعد من تشاتكال، فأنا سأذهب معه إلى أي مكان يرغب به، ولا أريد أي شيء، غير أن يكون معي، وأمام عيني... عسى أن ينتهي الشتاء على خير، - ففي البيت كمية

[1] تشاتكال - منطقة جبلية عالية، لا يمكن الصعود إليها في وقت آخر، عدا الصيف.

الذرة قليلة، عسى أن تكفي للربيع... وبالطبع إن الآخرين في القرية، ليسوا أحسن منا، فالشعب الآن يعيش ليس كالسابق، - فالخبز بالكاد يكفي للعيش. وربما لا يكفي القمح للخبز حتى الربيع، فالوضع صعب للغاية، وسيكون أصعب...".

⁂

في الإصباح يتشبع نبات الشيح بالقرب من الساقية، بالندى المثلج، وعلى وجه الأرض بدت الأسنان الثلجية في منظر فريد من نوعه مع حبات البرد. وفي بعض الأحيان كان يتساقط الثلج. أما النعاج فكانت تسير مبللة الصوف، ويعلو البخار من فوقها، وهو يفوح برائحتها الخاصة. وخلفها طارت العقاعق بصورة مباشرة، وهي تنظر بوقاحة إلى جوانب النعاج، التي تساقط صوفها. اقترب الشتاء، وعم الضباب، وتجهمت السماء... أما بخصوص الحرب فلم يلحظ المواطن لها نهاية في الزمن ولا في الإطار الجغرافي، وما زالت أعداد الرجال المتوجهين إلى الجبهة يزداد يوماً بعد يوم.

وفي هذه المرة تم إرسال دفعة من الشباب الصغار، الذين حان الوقت لاستدعائهم وهم شباب صغار، لم يظهر شعر شواربهم بعد.

- بوتوم[1]، البارحة عندما كانوا أولاداً، يركضون حفاة يلعبون لا هم لهم في الدنيا، يا للعجب كيف يمضي الزمن بسرعة، وأصبحوا شباناً، وسيلتحقون بالخدمة العسكرية، وهم لم يعرفوا طعم الحياة ولم يتذوقوا سعادتها بعد. آه، أيها الألماني المفقود، الموت كان ينتظرك! - كان الكهلة يتحدثون فيما بينهم بحرارة وهم يضربون الأرض بعكازاتهم بالقرب من العربات، التي تنقل الشبان، وهم

[1] بوتوم - لفظ تعجب واستغراب باللغة القرغيزية، وتعني "يا للغرابة!". - (المترجم).

يتوقفون في الساحة العامة، ويشربون المليسا. وهنا في آخر مرة اجتمع المطلوبين للخدمة مع الفتيات، والشباب من الأصدقاء والأقارب. وكانت تسمع بعض أصوات الثمالى وهم يغنون. وكان غناؤهم، يثير الحزن والحزم في الوقت نفسه، ونبرة الجرأة والإقدام، والتفكير بالمستقبل.

أما العجائز فقد كن يمسحن الدموع عن وجناتهن:

- إيه أيها الشباب الأقارب، عسى أن يكون يوم النصر قريباً، ونسمع أغانيكم من جديد مرة أخرى!.. أما سعيدة فقد كانت هنا أيضاً، بين الشباب، إذ أن كايني[1] دجوماباي جاء في الصباح إلى حفل الوداع.

- هلم يا دجيني[2]، لقد طلبنا مليسا سوف نحتفل بالوداع، لنذهب!..

لم ترغب سعيدة أن ترفض طلب الشاب، ولكنها حاولت أن تعتذر: فهي كانت تطحن بعض القمح على "دجار غيلتشاك"[3] الـ "تالكان"[4] لإسماعيل.

- ليس الأمر مريحاً بالنسبة لي أن أذهب إلى هناك، فلا تغضب - وسأذهب معك خلال الطريق إلى هناك...

- كيف لا يكون مريحاً؟ فأنت ستقومين بوداعي، وأنا لك كايني... لا، لنذهب، اقبلي مني لأجل إسماعيل لنذهب... ربما هو الآن

---

[1] كايني - الأخ الأصغر في أسرة الزوج، وهكذا تخاطبه أية زوجة من زوجات الإخوة الأكبر عند الشعب القرغيزي. - (المترجم).

[2] دجيني - زوجة الأخ الأكبر - وهي من اللغة القرغيزية الأصل للقصة. - (المترجم).

[3] دجارغيلتشاك - رحى أو جاروشة حجر يدوية، والكلمة من أصل اللغة القرغيزية. - (المترجم).

[4] تالكان - حب القمح الفريك بعد طحنه، وهي كلمة قرغيزية. - (المترجم).

في خضم معارك الحرب... حبذا لو ألتقي به في الجبهة، وسأقول له: إنك قمت بوداعي، وسأنقل له تحية وسلام منك... فهل أنا أسوأ من الآخرين؟ فالأقارب يودعون أقاربهم الشبان، وأنا، لماذا لا يأتي أحد لوداعي؟...

لم تجد سعيدة ما تجيب به، فاحتارت في أمرها - حتى دجوماباي لاحظ هذا.

- هكذا خجلت، أليس كذلك؟ إذن! فلنذهب...

وها هي تجلس في بيت بوزوكير[1]، ولا تجرؤ أن ترفع نظرها، وكأنها قد أخطأت أمام الجميع. وحاولت أن تختفي في الزاوية نهائياً، ووضعت منديلها على فمها، والتزمت الصمت.

لدى الإنسان في مثل هذه الحالات عدة طرق. وتشعر بهذا حتى أعماقك عند الفراق بشكل خاص. فهؤلاء الشباب، الذين ينظرون غداً بأعينهم إلى الموت أمامهم. ها هم الآن يضجون ويضحكون وهم يروون لبعضهم النكت، والطرف، يغنون، وكل هذا لأنهم أصبحوا الآن أقرباء أكثر من أي وقت مضى. وفي هذه الدقائق، لم يفكروا بأنفسهم، بقدر ما أخذوا يفكرون بالناس جميعاً من حولهم في القرية، وخاصة الباقين منهم على رأس عملهم وتربيتهم للأطفال، وتمنوا لهم عند الوداع الصحة والسعادة؛ ولهذا وحده يرغب الفرد أن يقدم لهم شيئاً كبيراً وجيداً، وأن يعطيهم روحه عندما يلزم الأمر.

وهذا هو دجوماباي، قرمزي الوجه، منتعشاً قليلاً من المليسا، نهض من مكانه فوق اللباد. ومن خلال النظر إليه - ما زال شاباً لم تكتمل بنيته كما يجب، حاد المزاج، وهو في طور المراهقة. أمسك

[1] بوزوكير - الإنسان الذي يحضر المليسا، ويبيعها في المقاهي. - (المترجم).

الفنجان المملوء بشراب المليسا - لقد جاء دوره أن يغني في الوداع.

أما أخو دجومابـاي، ميرزاكـول - هـو إريتش[1]، عـاد منـذ فـترة قريبـة مـن الجبهـة فاقـداً إحـدى يديـه، وهـو الآن رئـيس مجلس المنطقـة الزراعيـة. ويغـني الشـباب أغانيـه، وهـي تطـرب الـروح ويحـزن الإنسـان أحياناً عند سماعها.

غنى دجومابـاي واحدة من أغـاني أخيـه المحببـة لقلبـه، وفيهـا مـن المتعة في مد الصوت، والعمق في معاني الأغنية وألحانها:

إيه - إ - إيه!
ستون عربة مقطورة
جرها القطار المجنح،
ها أنا أغادر قريتي -
وداعاً يا أقربائي...

سبعون عربة مقطورة
القطار السريع قد غادر.
ها أنا، أغادر قريتي،
وداعاً، يا أصدقائي...

- وداعاً أيها الفرسـان! دوت الهتافـات والـدعوات الخـيرة والطيبـة.
- عودوا لنا بالنصر!...

لقـد كـبر دجومابـاي، وخشـن عـوده أمـام أعيننـا - قـد أصـبح رجلاً بالغاً وقوياً. وها هو يرفع كتفيه برجولـة وشـجاعة، نظـر هـو عـبر النافذة إلى الجبـال الحبيبـة؛ وبـدا لـه الأمـر، حقيقيـاً الآن، أنـه لـن تمـر ساعة، حتى تصبح قريته الحبيبة بعيدة عنه إلى الخلف. فتابع الغناء:

[1] إريتش - مغني القرية، وهو بمثابة المطرب الشعبي في قرغيزستان. - (المترجم).

... نحن مسافرون نحو أريسي،
عيناي تتعلق بك، يا ألا-تو
ها هي تودعنا، بعيداً، بعيداً،
... ثلوجك الزرقاء - البيضاء...

- إلى اللقاء، أيها الفرسان. - صرخ الجميع مودعين. - وأين توجد في الدنيا جبال كجبلنا ألا-تو!... الآن أخذ الجميع يغنون: الشبان، والبالغون والفتيات.

أما سعيدة فكانت غارقة في تفكيرها المتناقض. ونسيت في هذه اللحظات كل شيء في الدنيا. وبدا لها، أنها ترى: كل ما يجري هناك في النفق في قلب الجبال، وكذلك ما يجري في أراضي كازاخستان الفسيحة، وكيف تشق القطارات طرقاتها في كل الاتجاهات، وبشكل أساسي كانت القطارات الحربية، التي تنقل المتطوعين والآليات إلى الجبهات المتعددة وعند أبواب القطارات والعربات والمقطورات الكثيرة يقف الشباب يغنون، ويودعون كل من يروه في الطريق، ويلوحون بأيديهم نحو جبال ألا-تو، التي تمتد لسلسلة طويلة تحجب الأفق بعيداً. وتبتعد الجبال مغطاة بالضباب الكثيف، وبدا لها، أنها هي أيضاً تركض مسرعة، خلف القطارات، محاولة أن تلحق بها، ولكنها تبقى فيما بعد وحدها في السهول. لقد تعبت من الوقوف والاستناد إلى عمود الهاتف. أذنها تسمع هديره وضجيجه: كأن تيمير - كاموز يصدح بالأصوات الحزينة لـ "بكاء الناقة"[1].

[1] "بكاء الناقة"– أغنية قرغيزية عن الناقة، التي أضاعت ابنها الصغير. وقد تكلم الكاتب أيتماتوف عن هذه الأغنية في أعمال أدبية أخرى. - (المترجم).

تأثرت سعيدة تأثراً كبيراً بهذا الوداع الغنائي، ورفعت رأسها بحذر، ولقد جهز الفرسان الشبان أنفسهم للسير في مهمتهم، عبر الطريق الخارج من القرية. البعض كان يبكي، وآخرون يضحكون، ثمالى قليلاً، ولكنهم جميعاً كانوا كإنسان واحد مليئين بالإرادة القوية والعزة والكرامة. ولقد تمنوا لبعضهم البعض أن يعودوا محققين النصر. لقد كانوا أقرباء كالإخوة، وفي روح المرأة قد انغرست وولدت مشاعر الحب الأمومي إلى هؤلاء الشبان، بما في ذلك التعاطف مع معاناتهم ومصاعبهم وآلامهم. وتمنت لو كان بإمكانها أن تساعدهم!... ولقد تصورت نفسها أنها ستقف الآن وتقول بأعلى صوتها: "توقفوا، أيها الفرسان الشبان!، ما زلتم في بداية حياتكم، وفي زهرة قوتكم وعطائكم، وأنتم الآن تجهزون أنفسكم للمغادرة، وأن تتركوا قريتكم، مسقط رأسكم. ولم تعيشوا شيئاً من حياتكم! اسمحوا لي أن أذهب بالنيابة عنكم، وأموت كفدية لكم!...".

وهنا تذكرت سعيدة: اليوم عليها أن تحمل الـ تالكان لإسماعيل، فهو ينتظرها. وها هي تحني رأسها أمام الهموم ثانية؛ وانتقلت بأفكارها إلى البيت: "لم يتم طحن التالكان كما يجب، ولم أقم بإطعام وإرضاع الطفل... لقد جلست هنا طويلاً...".

خرج الفرسان الشبان إلى الشارع. والناس في حراك حول العربات، واستقبلوا الشبان بحماسة.

- لنطلب لهم التوفيق! - قال مربي الخيول بصوت قوي. وكان باربي يعتلي صهوة حصانه، وهو يمسح على لحيته البيضاء. أمسك مقود الحصان، وأوقفه جامداً، وفتح يديه كأول إنسان معروف بين العاملين، إذ قال:

- آمين! عسى أن تساعدكم أرواح الأجداد أن تعودوا منتصرين سالمين!

وبعد هذه الكلمات، امتطى حصانه وضربه بالسوط، وهو يحني رقبته القوية ويرفع كتفيه، واختفى بسرعة: لا يجوز للرجل الحقيقي أن يذرف الدموع على مرأى من الناس، وخاصة أمام المحاربين الشبان.

وفي جو من الاستعداد والضجة للعربات توجهت مجموعة من الفرسان على عربات أعدت لنقل الشبان إلى محطة القطار. وهكذا ساروا، وهم يغنون في ضجيج العربات، ولم يمض إلا وقت قصير حتى اختفى الجمع خلف التلال، وما زال أهالي القرية يسمعون أغنية الشبان المحببة:

- إنني أغادر قريتي، وداعاً، يا أعزائي...

كانت النساء تبكي بكاءً مراً، لا عزاء عنه، فمن من هؤلاء الشباب في زهرة حياته سيعود، ومن منهم سيدفن في أراض غريبة، وبعيدة من هنا؟ وهكذا وقف الناس وعلى وجوههم الحزن والكآبة فوق التل، وهم يرقبون آخر أثر يدل على وجودهم في نقطة ما من الطريق. وهنا قالت سعيدة في نفسها، وهي تنظر إلى الوجوه الحزينة لأبناء القرية: "لا أريد أن أغضب الله، بالوقوف ضد أحكامه، ولا أريد أن أتعذب من أن زوجي هارب من الجيش. والمهم أن يكون حياً، وعسى أن يحافظ على نفسه!...".

عندما هدأ الصخب والضجيج والأغاني في القرية، وضعت سعيدة تحت العباءة كيساً يحتوي على التالكان وبعض أرغفة الخبز. كما أخذت حبلاً ومنجلاً، ومن يسألها تقول له إنها ذاهبة لجمع القش والحطب.

أما الضباب فقد انتشر فوق المنحدرات الصحراوية، وكذلك فوق الروابي. وعم في القرية هدوء قاتل - حتى الغربان لم تعد تنعق. وفقط الشجيرات، كانت تصدر بعض الحفيف، وشجيرات العليق الشوكية تمسكت بالأرض بقوة أشواكها. وكانت تصطاد النسيم البسيط، وكل غصن كان يتمايل بحذر وهدوء على طريق الأفاعي. وثمة امرأة وجلة وخائفة في الضباب كانت تسرع الخطا إلى أحب الناس إليها، إلى أقرب إنسان لها.

☆☆☆

منذ بداية فصل الخريف أخذ ساعي البريد كورمان يتجنب المرور من جانب بيتين على طرف الشارع في نهايته. وكان يتصنع مظهر الإنسان المشغول، والذي لا يوجد لديه الوقت الكافي، وعليه أن يوصل بعض البرقيات السريعة. وعندما كان يقترب من البيت كان يضرب الحصان حتى يعدو مسرعاً. ولكن توتوي كانت تلحظه في كل مرة يمر فيها من جانب البيت، وهي لم تعد تأمل بأنها ستستلم رسالة. وعلى أي حال، فها هي قد تركت كومة القمح من السنابل، التي جمعتها من الحقول، وأخذت تركض إلى الشارع وتلوح لساعي البريد بيدها الضعيفة.

- آه، لماذا أيها العزيز لا تأتينا ولو برسالة واحدة؟ - كانت تصرخ المرأة بصوت يائس.

وعندما سمع الأولاد الثلاثة صوت أمهم، خرجوا من خلف المدخنة - كانوا يلعبون هناك تحت أشعة الشمس - وركضوا متسابقين قدر استطاعتهم حتى يلحقوا بساعي البريد:

- رسالة، رسالة من أبينا!

لم يتسع الوقت لساعي البريد الكهل كورمان أن يجيب الأولاد عن سؤالهم، فاقترب الأولاد من الرجل، وأمسكوا بركاب الحصان، وهم يرفعون وجوههم، ويفتحون أفواههم كالفراخ:

- أين الرسالة؟

- أعطني الرسالة!

- كلا، أعطني إياها، لي أنا، يا كورمان! أنا سآخذ الرسالة!

- أو - ي - حتى لا يصرعكم العدو، فلا توجد رسالة لكم! أوو، كوكوي - أوي[1] يا لهؤلاء الأولاد المشاكسين!- ففي البداية من الضروري معرفة الحقيقة، ماذا وكيف، وبعد ذلك عليكم أن تصرخوا حتى تسمع كل القرية!...

لقد حاول الأولاد بإلحاح، وهم يتأففون مشككين، لماذا كل الأولاد يستلمون رسائل من آبائهم، أما هم فلا توجد رسالة واحدة. ولذلك ألحوا على الكهل أن ينظروا في حقيبته السميكة، ولم يعودوا إلى بيتهم: كانوا ينتظرون شيئاً ما، فتأسف وحزن كورمان لوضعهم، وهم حفاة سذج، كم هو مزعج ومؤسف بالنسبة لي شخصياً، ولكن ماذا عليّ أن أقول؟

- وهل تعتقدون، يا أحبائي، وأقربائي الصغار، أنني أخفي الرسائل عنكم؟ - تمتم الكهل بحزن وهدوء، وحتى يثبت لهم مد يده إلى فوق بطنه، وتحت إبطيه، وأخرج يده خالية، ألا تصدقون؟ ولو كان الأمر بيدي، لكنت قد أجبرت والدكم أن يكتب لكم كل يوم ثلاث رسائل - فهذا أفضل، من أن أنظر إليكم هكذا، وأرى هذه العيون المتشوقة لاستلام رسالة. عسى الله، أن تأتي رسالة،

---

[1] لفظة تعجب واستغراب، ويأس - (المترجم).

وسأجلبها لكم على الفور... لقد رأيت حلماً غريباً... أما الآن فاذهبوا إلى البيت... وسلموا على سعيدة: لا يوجد لها أيضاً رسالة، ولو جاءت سوف أحملها على الفور في يوم البازار...

استغرب الكهل، وحرك قبعته، منزلاً إياها على جبهته السمراء الداكنة، وهز رأسه غير راض وسار ماضياً.

في ذلك الوقت، كان حصانه، وحسب العادة يستدير عند باب كل بيت حسب الأصول، ولا حاجة لساعي البريد أن يأتي مرة أخرى. إذ تشد الفرس المقود بقوة وعلى عجل، وتتعثر بمشيتها، وعندها يغضب ساعي البريد، ويضربها بالسوط على رقبتها:

- آه، يا لك من فرس هزيلة شيطانية! حتى لا تطأ حوافرك الأرض بعد الآن! يا لك من فرس عاطلة - ولا تحملين غير الأخبار السيئة... ولو كان عندي رسالة، لكنت أطلقت عنانك بالسرعة القصوى.

وفي كل مرة كانت تعود سعيدة مع الحطب، كان يلتقيها أسانتاي، الابن الوسط عند الجارة توتوي، وكان عمر الولد سبع سنوات تقريباً، ويرتدي سترة والده العتيقة، رثة الأكمام. وله عينان صافية للغاية وهما معبرتان، أما نظرته فكسولة وساذجة لدرجة ما، وحالمة. وهو يبتسم بصورة دائمة، مبيناً أسنانه الأمامية، التي لم تسلم جميعها من العطب؛ أما أسانتاي فهو يعجب النساء أكثر من إخوته، بينما يعجب الكبير - الرجال، والأكبر لا يشبه أسانتاي - إنه عنيد، وله طباعه الخاصة.

- سعيدة - دجيني، لم نستلم رسالة من إسماعيل منذ زمن بعيد، وحتى للأهل لم يرسل لهم رسالة، - قال أسانتاي، حسب

طريقته، وكأنه قد ارتكب خطأ، وشد سترته بشكل أفضل - وثبت الكيس على كتفيه الضعيفين. - ولقد قال كورمان أنه سيأتي برسالة في يوم البازار. لقد رأى حلماً في نومه، يدل على شيء!..

ومن تحت القبعة المصنوعة من جلد الأرانب، أخذ ينظر إلى سعيدة بعينين طفوليتين بريئتين. ولقد وعدت هذه النظرة بينهما الكثير، وحتى كل ما هو غير ممكن، فلو عرف الولد، كم هو وقع كلماته البريئة، والبعيدة عن الرياء والخداع صعب وثقيل للغاية! وبدا الحمل الثقيل، الذي تحمله كل يوم، وحملته الآن من مسافة بعيدة، دون أن ترحم نفسها، لا شيء بالمقارنة مع الشعور الحالي، وفي هذه الدقيقة بالذات، حيث انحل ظهرها كلياً، ولم تعد قادرة على المسير، وكأنه ألقي على ظهرها صخرة... لم يبق حتى البيت خمس أو ست خطوات، وحتى لا تقع سعيدة على الأرض، أخذت تتكئ على جانب المدخنة، ثم قامت بقذف الحمل عن ظهرها إلى الأرض، وهي تنحني على المدخنة، وقفت خالية اليدين. وكانت عاجزة عن أن تلم شعرها المنثور على جبهتها، والملتصق بعرق وجهها. "آه يا إلهي، إذا سمحت أن ترسل لي، ولو خبر واحد من أب هؤلاء الأولاد!" - أخذت تفكر هي. وبدا لها، ولسبب ما، إذا استلمت الجارة توتوي رسالة من زوجها، سوف تشعر هي بالراحة، ويهون الأمر عليها. وفي أكثر من مرة، كانت تتذكر كلمات أسانتاي، والخوف والهلع البادیان عليه. وهي لم تسأل منذ فترة طويلة لدى ساعي البريد كورمان، عن رسالة من إسماعيل. علماً أن إسماعيل كان يوصيها، بأن تسأله: "سأسأل في المرة القادمة" - كانت تعد نفسها، ولكنها، وفي كل مرة، كانت تغير رأيها: "كلا، من الأفضل أن لا أسأل!".

توتوي كانت تعيش، قريبة منها.

وقبل عدة أيام، وعند المساء المتأخر، عند الظلمة الأولى، عندما تخف الحركة في القرية وتجمد تقريباً. أخذت سعيدة تجمع ثياب إسماعيل حتى تقوم بغسلها. واستمرت عملية الغسيل حتى طلوع الفجر، حيث كان على سعيدة أن تقوم بتجفيف الثياب فوق الموقد. وعند الصباح جهزت سعيدة نفسها لجلب المياه، خرجت إلى العتبة، وفجأة أطبقت عينيها، خلال الليل تساقط ثلج كثيف. أما هذا اللون الأبيض الفاقع والممل قد بعث في نفسها التشاؤم والقلق. فشعرت أنها ستتقيأ كل ما في معدتها، واختلط لعابها بمرارة غريبة، مع دوران في رأسها. "يا للمصيبة، هل أنا حامل؟ - تأرجحت سعيدة في مكانها، وأسقطت السطل من يدها، - فماذا سيقول الناس؟" وهنا حاولت أن تهدأ وتقنع نفسها بعكس ذلك. "لا، من غير الممكن، هذا من البرد وعدم النوم". وحاولت أن تنسى الموضوع، وأخذت تفكر بإسماعيل. كيف سيكون وضعه هناك اليوم؟ - كانت تتساءل مع ذاتها، بينما كان قلبها يسرع في دقاته، ويؤلمها بحزن. - حل فصل الشتاء، وقريباً سيبدأ الجليد، فكيف سيكون وضعه في المغارة؟".

نعم، لقد حل الشتاء قوياً قارساً. ففي يوم البارحة كانت الأرض سوداء داكنة، أما اليوم فقد اكتست الجبال بالكامل بالثلج الأبيض الزاهي - وانحنت أشجار الصفصاف فوق السواقي. وأخذت تتلبد في السماء غيوم كبيرة وثقيلة ذات ضبابية كثيفة. وبدت السماء خالية من الأسفل، والعالم قد تقلص تحت قبة السماء. وما زال الثلج يتساقط، والرياح تتعاقب على دفعات، واشتدت الرياح الثلجية. فالناس لم ينهضوا من فرشهم: لم يرغب الناس أن يخرجوا ليلقوا هذا البرد، الذي حل مبكراً.

سارت سعيدة مطأطئة الرأس، وهي تفكر، كيف من الممكن أن ترسل لإسماعيل اللبادة الكبيرة: "وبدونها من الصعب أن يتحمل برد الشتاء القارس...". وهنا توقفت عن التفكير، إذ رأت فوق الثلج آثار وقع أقدام. وعندما تتبعت الأثر، وجدته يتجه نحو النهر. "من المحتمل أن تكون هذه آثار أقدام توتوي"، - حزرت سعيدة، إذ رأتها تسير نحوها، وهي تحمل سطلين من الماء. وتنتعل جزمتين ثقيلتين، علماً أنها نحيفة القوام، وبرزت عظام وجنتيها بسبب هزالها الكبير، وعلى طرف فمها اكتظت التجاعيد على وجهها. والعباءة موثوقة بعروة كما يفعل الرجال، بتكوين عقدة، من الصعب حلها. وضعت توتوي عندما شاهدت سعيدة السطلين على الأرض، وأخذت تنتظرها، وهي تفرك يديها الباردتين الزرقاوين. ثم بادرت جارتها بالكلام:

- كأنك لم تنامي طيلة الليل؟ انظري إلى نفسك كيف غارت عيناك في جحريهما، ووجهك قد اصفر وشحب.

- كلا، ليس كذلك، إن رأسي يؤلمني جداً، - أجابت سعيدة، ثم أضافت مسرعة: - وما عليّ أن أعمل في الليل، عدا النوم؟ - وهي بالذات قد خافت من كلماتها، وهي تشعر، بأن الألم ينهشها عند فم المعدة. "ربما خرجت توتوي في الليل إلى الشارع، ورأتني وأنا أغسل؟ وها هي الآن تسألني...". إن توتوي إنسانة ذكية حقاً.

هزت توتوي كتفيها ورأسها، وقالت بصوت ممدود قليلاً:

- أنت، لا تعيشين وحدك، وحيدة مثلي! فالعجوز عندك، هي كالظل في البيت، فهي لا تعرف شيئاً، غير الجلوس إلى جانب الموقد، وشيء جيد أنها تعتني بالطفل - حفيدها، فهي إنسانة عاجزة كلياً... وأهلك الآن يرعون الأغنام بعيداً من هنا... وهكذا الحياة تشق طريقها

كما تشاء! - التزمت توتوي الصمت، وأخذت تنظر بمودة وتعاطف إلى سعيدة، التي التزمت الهدوء. وهي فعلاً كانت تأسف لوضعها. أما أهداب عيني توتوي فكانت طويلة وتغطي عينيها بكثافة، وكانت هذه الرموش تعطيها صرامة وقوة، أما الآن فأعطتها نعومة وحنان وهدوء في حديثها النسوي مع سعيدة. وفعلاً إن سعيدة، ومنذ فترة طويلة لم تشاهدها على هذا النحو من التعاطف، الذي أعطاها شيئاً من الجمال والرقة. "ربما كانت جميلة في شبابها الأنثوي، وابنها أسانتاي يشبهها، فعيناه جميلتان، كعيني أمه"، - فكرت سعيدة.

تنهدت توتوي بعمق وقالت:

- إن ما يحطمني ويؤلمني كثيراً، أنه لا توجد رسائل... فما العمل، هذا هو مصيرنا. هكذا، لقد بقيت مع ثلاثة أولاد صغار. وأنت أيضاً تعانين بسبب البعد عن زوجك، الذي ذهب إلى الجبهة منذ نصف سنة، ولولا ذلك لكان من الممكن أن تعيشا بسعادة وهناء... ولقد ولد عندكما طفل - لم ير أبيه بعد... هذا شيء بغيض ومزعج، وبالطبع، حبذا لو أن كل شيء يمر بسلام، ولو كان بالإمكان التأقلم والاستيعاب. نعم، لم تأت رسائل!.. وكلما فكرت بأنهم، يمدون أيديهم ويطلبون المعونة من الناس أخرج عن عقلي. وهذا الشتاء قد حل بكل قوته، والأولاد عندي عراة... ولم يبق من الذرة إلا كيسان... وماذا يعني هذا بالنسبة لنا؟ - لاحت توتوي بيدها، ومسحت دموعها، ثم عبست، محاولة أن تحبس إرادتها، وتعود لوضعها الطبيعي، ومن ثم حملت السطلين ومشت.

أما سعيدة القلقة أولاً، والمطمئنة ثانياً، لأنها لم تلحظ أي تشكيك في كلام توتوي، وأنها لم تفكر بأي سوء نحوها. فنظرت

سعيدة إليها وهي تغادر، وهي لم تتمكن من قول أي شيء لتوتوي. إن وفاء هذه المرأة الصغيرة، واستعدادها لمساعدة الآخرين، يعكس حنانها وودها الأنثوي. أما ضعف توتوي فقد أثار حفيظة سعيدة، وفي الوقت نفسه شعرت بنفسها هكذا، وكأن توتوي، أدانتها في شيء ما، فقد قالت أن مصيرهما متشابهان، وهذا يعني، أن سعيدة لا تملك الحق أن تتذمر. أما سعيدة فلم تتمكن من تحليل تناقضاتها، وعدم الوضوح في مشاعرها، وبدأت تحاول تبرير مواقفها لنفسها: "وما عليّ أن أعمل؟ لكل منا مصيره الخاص. ما كتب للسلالة، سوف يكون. فإذا كان قد كتب لأولاد توتوي أن يكونوا سعداء، فإن والدهم سيعود...".

أما بايدالي، زوج جارتها توتوي، فعمل طيلة حياته في سقاية الأراضي. وفي الأماسي وعندما يعود من العمل، فمن الممكن أن يراه الناس يسقي في مكان ما، ويتحرك واثقاً بنفسه، ويفتح طريقاً للمياه في السواقي الأخرى، ويخطو بإقدام في الأرض بشكل منظم.

وثمة هالة رائعة تموجت كالسراب فوق البرسيم ذي الزهر القرمزي الداكن قليلاً، وخلال كل ضربة في الأرض عند الساقية، كانت تبرق بشدة في يدي بايدالي شفرة الفأس الحادة جداً في تعاملها مع الأرض.

"إنه يعرف جيداً، كيف يقتصد المياه، إذ كانت يداه ذهبيتان!" - كان أهالي القرية يتكلمون عنه. كان يضحك بصورة مدوية، عندما كانت العاملات يقفزن فوق الساقية وهن يرفعن فساتينهن بأيديهن، خائفات أن يقعن في الساقية، التي تجري فيها المياه بسرعة.

- إ - إيه، ماذا تفعلن هناك؟ هل أنتن خائفات من أن تجركن المياه؟ وحتى لو تمكنت المياه من جركن، فإنني لن أسمح لها أن تأخذكن بعيداً، ستقعن بيدي، مهما ابتعدتن!

- لتجرفك السواقي معها، يا لك من شيطان لا يشبع! حتى تغرق بالماء! - كانت النسوة تقلن له ذلك بصوت عال، وقد تعودن على المزاح معه.

أما هو فكان يتابع العمل مبتسماً، وغالباً ما كانت تدوي قهقهاته بعيداً كالعادة.

وبعد فترة قصيرة تلتفت، ترى، ومن بين موجات الضباب الكثيفة، بايدالي، وهو يسير في الأرض، طويل القامة، بمنكبيه العريضين القويين، ينهب الأرض كعملاق عُرف بطيب قلبه ولطفه. فهو يسير عبر الأرض كلها، ويشير إلى النقاط والأماكن، التي تحتاج لتسوية وإصلاح، وهكذا يبتعد أكثر، وأكثر...

وذات مرة، ركض مسرعاً إلى الجيران، ومثّل للجارة سعيدة هذا المشهد. لم تكن زوجته توتوي راضية، وثمة شيء ما يزعجها، فعضت على شفتيها قهراً، وأخذت تقرقع بالأواني، وخاصة القصعة الكبيرة، حيث أخذت تنظفها بالملعقة بشدة، وتصرك على جدرانها بضوضاء، أما بايدالي فقد تابع يصنع بعض الألعاب لأولاده، فالتفت إليها وقال بهدوء:

- إنك تحتدين، وتحرقين أعصابك أيتها المرأة. فنحن لا نعيش أسوأ من الآخرين... فحاولي أن تذهبي إلى أسر عديدة من الذين لديهم ثلاثة أولاد، فماذا ستجدين؟ أنت تعرفين أبنائي، ولا تلزمني أية ثروة أخرى... إنهم أحبائي، وهم أولاد جيدون وهبني الله إياهم!

كان بايدالي يرسل الرسائل من الجبهة باستمرار، ومنذ الخريف لم تعد تصل ولا رسالة... ولم تكن هناك رسائل أيضاً من إسماعيل. وكما رأينا، ساعي البريد كورمان، يمر من جانب البيتين، ويضرب بكعبي رجليه على جانبي فرسه لتعدو مسرعة دون أن يلحظه أحد. فلم يكن يستطيع أن يأتي بأيد خالية! ولقد كان يشعر بالحرج وكأنه يخطئ بحق الناس، كما يحس وكأنه مدين لهم وعليه أن يفي الدين، ولم تكن لديه النقود لذلك. أما بالنسبة لرئيس المجلس الريفي ميرزاكول، فأصبح يكرر مجيئه إلى بيت إسماعيل، وهذا ما أخاف سعيدة حتى الموت. ربما أن ميرزاكول يشك بأمر ما، ويريد أن يصل إلى حقيقة ما تخص إسماعيل؟ ولكن لم تلحظ سعيدة أي شيء من هذا القبيل، ولم يبدو من خلال تصرفاته أي شيء يدل على ذلك - ومن أين لميرزاكول أن يعرف شيئاً؟ فموضوع هروب إسماعيل لم يعلم به أحد في القرية. وإسماعيل حذر جداً، ولهذا كان يوصي زوجته:

- انتبهي يا سعيدة، هذه الأوقات، التي نعيش فيها ضبابية، وانتبهي أنه بين الشعب أناس سيئون وعليك ألا تثقي بأحد، كان من كان، ولا تنبسي ببنت شفة أمام أحد، وحتى لو قام أبي من قبره، فلا تثقي به! أتسمعين؟

وعندما يأتي ميرزاكول إلى المنطقة، ويمر بطريق قريب منهم، كان يعرج إلى بيتهم بحكم أنه يعتبر قريباً بعيداً من سلالتهم. وقبل أن يذهب إلى الجيش، كان شاباً، وفارساً، يضع على رأسه قبعة مصنوعة من فرو أستراخان الأسود وبجرأة، على جانب رأسه. إنه يحب ركوب الخيل وحضور السبق ولم يفترق يوماً عن الكوموز[1]. وفي

[1] الكوموز - آلة موسيقية قرغيزية، منتشرة بصورة واسعة، ومحبوبة شعبياً. - (المترجم).

القرية كان الناس يحسبونه أحسن مغن؛ وكان هو يؤلف الأغاني، ويلحنها. عاد من الجبهة بعد أن فقد إحدى يديه - ومن لا يعرفه الآن، يكون غريباً عن المنطقة. ويمتاز ميرزاكول بطباع خاصة: غالباً ما يثور بعصبية شديدة، وهو يشبه الشجرة، التي تهتز بشدة، فالكتف الأيسر ينزل إلى الأسفل، وتشمخ الرقبة عالياً، وعليها آثار جروح عميقة، وهذه العلامات على جسمه تشير إلى طباع شريرة في الإنسان. زد على ذلك، حدة نظره ووجهه العبوس، المنفعل باستمرار. والآن يغني ميرزاكول عن الحرب، وانطباعات الجبهة، التي عاشها، أكثر من أي شيء آخر: نسمعه يغني بصوت حزين مخنوق، وأحياناً أخرى بقساوة، وأحياناً بحدة ملتهبة حتى يهدر صوته هدراً، وعندما ينسجم ميرزاكول مع الأغنية تجد عيناه تبرقان وتشعان كعيني العمالقة العظام، والأبطال الأسطوريين، فيأخذ ينفض يده الوحيدة في الأعلى، وكأنه يدق على أوتار الكوموز. أما الآن فلم يعد لديه الوقت للعزف على الكوموز... وعادة كان ميرزاكول يعرج إلى توتوي، وها هو صوته يأتي قوياً من جهة البوابة:

- إ - إيه، أين أنت يا توتوي؟ هل أنتم أحياء؟ - ثم ينظر من حوله وإلى كافة الأنحاء، ومن فوق المدخنة العالية، ومن بعيد يخاطب سعيدة: - كيف ابنك الصغير، يا سعيدة، هل هو بصحة جيدة؟... لفي لي سيجارة من التبغ، المخبأ عندك في البيت. تعالي إلى هنا، إلى جارتك... يوجد كلام عليّ أن أقوله لك، ستنهين عملك فيما بعد...

لم يسأل ميرزاكول، ولا مرة، هل يستلمن رسائل من أزواجهن. لا يرغب بإزعاج النسوة وتعكير صفوهن أكثر من اللازم. زد على ذلك، أنه كان دائماً يطلع على بريد القرية، ويعرف كل أمورها، مع العلم، أنه وفي كل مرة كان يلتقي بهن، كانت سعيدة تقلق،

وكانت تشك بأمره، ولماذا هو لا يسأل عن إسماعيل، وهل يكتب الرسائل. هذا يعني أنه يعلم شيئاً ما. هذا يعني أن الأمر ليس بسيطاً...

لفت سعيدة سيجارة من التبغ، الذي جمعته في حيازة المنزل، ثم ذهبت إلى جارتها، وهي تحاول بكل قوتها أن تمتلك أعصابها، وأن تحبس شعور الخوف المتراكم في داخلها. ترجل ميرزاكول عن حصانه بمجرد أن رأى سعيدة، ثم أشعل السيجارة، وبدأ يتلذذ بنوعية التبغ، إذ أنه كان يدخل إلى رئتيه معظم الدخان، حتى لا يضيع شيئاً منه. ثم بدأ يتحدث أي حديث كان، لا على التعيين: عن هذا وذاك بلا تحديد...

- يا له من تبغ ممتاز عندك، يا سعيدة! - قال مادحاً. - أرسلي شيئاً منه إلى إسماعيل في إرسالية، وليدخن هناك. وليتذكر جبلنا تلاس. فمثل هذا التبغ، الذي ينمو عندنا، لا يزرع في أي مكان آخر.

- سأرسل، - قالت سعيدة بصعوبة. - هل لديك ما تقوله لي بعد؟

ولكن يبدو أنه لم يكن قادراً على قول أي شيء آخر. وبدا لها الأمر، أن ميرزاكول قد حزر من خلال تعابير وجهها، كيف تتسابق وتتصارع الأفكار في داخلها. وهذا قد أثار ارتباكها أكثر من ذي قبل، واحمر وجهها. فسعلت سعلة مصطنعة: - فو، يا له من دخان مر، ينهش الحنجرة... وماذا تجدون فيه شيئاً جيداً؟..

لقد قالت كل ما في خاطرها، وكل شيء حسب الأصول، ولكنها أخذت تعاني طيلة الليل: هل فضحت أسراري من خلال خجلي؟ "سامحني يا إلهي، هذه المرة أيضاً. فلا يجوز لي، لا يجوز مطلقاً أن يحمر وجهي، وعليّ أن أراقب حدة صوتي، وأمنعه من التهدج! وهل يا ترى قد لاحظ شيئاً؟ فأنا مخطئة، والشجاعة عندي

لا تكفي، - أخذت سعيدة تؤنب نفسها. - ولماذا هو تكلم عن الإرسالية؟ فهل كان هذا ببساطة، أو بتفكير مسبق، وله مغزى؟..".

وفي مرة أخرى تفحص ميرزاكول الغراس، التي غرستها توتوي على حافة الساقية، وقال لها بعض الملاحظات:

- في كل خريف كنت أقوم بتقليم الأغصان الزائدة، واليابسة، أما في هذا العام فلم يقم أحد بهذا... فالمهندس الزراعي يعمل ضمن فرقتك... فمن الضروري أن يتم تقليم الزوائد، والأغصان العاجزة، وتفريدها حسب الأهمية، وإذا لم يتم ذلك، فإن الشجرة تعجز عن النمو والعطاء. زد على ذلك، أن الحطب الناجم عن التقليم ضروري للتدفئة...

نظرت توتوي بحسرة إلى ميرزاكول، وتنهدت بألم:

- وإذا لم تعد تنمو، فلن أبكي: فلمن تلزم! وهل الأشجار - دعامة للإنسان؟.. فإذا لم تكن في البيت، فكل شيء سيئ... حاول أن تذهب: وفي الكولخوز، أعمل بكل جهد، وأجمع السنابل، وأطعم الأولاد... ها أنا وجارتي قريبتان من بعضنا، ونحن الاثنتان - لا خبر ولا علم من جهة زوجينا، وهل هم أحياء أو أموات، لا ندري. والله وحده يعلم بأمرهما! - استدارت جانباً، وعضت على شفتيها. - وأنت ما زلت هنا تتحدث عن الأشجار...

جمدت سعيدة، وانكمشت خائفة، أن ميرزاكول سوف يروي الآن كل الحقائق. "وأنت لا تقارني نفسك بها، - سيقول ميرزاكول، - فإسماعيلها ما زال مختفياً عن الأنظار منذ زمن بعيد. إنه هنا، وهو هارب من الجيش!..". نعم، لقد بدا هذا شيئاً محتوماً في تلك الدقيقة. ولكن ميرزاكول قال شيئاً آخر:

- وأنت تعلمين، يا توتوي، ربما ليست الأشجار وحدها تساعد، بل حتى ظلها في البيت ضروري. - قال هو بهدوء. وفجأة نهض، وخرج مسرعاً، وصرخ، وكأنه جهز نفسه ليقول لهما ما في صدره منذ أمد بعيد، ومباشرة: - عليكما أن تتركا هذه الشكاوى والبكاء! وبمجرد أن يتأخرا بإرسال الرسائل، تبتدئان بالبكاء والنحيب. عليكما أن تصلحا الشقوق فوق السطح وترتبان الحشائش بشكل أفضل - فأنتما قمتما بتجميع كدس على طرف من السرعة، وغداً في الشتاء سيتعفن، ولن يبقى العلف للربيع! وهل ترغبان أن يبقى الأولاد بلا حليب؟ فأنا لسوء عملكما هذا سأقطع رأسيكما معاً! فإذا كانت واحدة لوحدها عاجزة عن تنفيذ هذه المهمة أو تلك، فلتنادي جارتها، وها أنتما جارتان اثنتان... فأنتما معاً تساويان رجلاً واحداً... والنساء الروسيات في الخنادق، يحملن البنادق، ولسن أسوأ من الرجال. وأنا رأيتهن بأم عيني... أما أنتما فتجلسان في بيتيكما - وتبكيان، لعدم وصول الرسائل!..

التزمت توتوي الصمت، ولم تعارض بكلمة واحدة. أما سعيدة فقد أجابت، وقد استغربت من نفسها، إذ قالت:

- إننا سوف نقوم بكل ما ذكرت، واليوم سنقلم الأغصان، ونعيد تنظيم كدس الحشيش!

ربما هي قالت هذا الكلام على عجل غير مدروس؟ ولكن الآن، لم يكن عندها أية أفكار مخفية، فقالت هي ما في قلبها، وبصراحة، وأرادت بهذا أن تبعد الحديث عن الرسائل، كما شعرت بالخجل من نفسها ومن صديقتها توتوي. لم يقل ميرزاكول أي شيء آخر. وبقي غاضباً ومتهيجاً، إذ قام من مكانه، ونظر بدقة، وانتباه

إليها - كان موافقاً على ما قالت، كما يبدو من تعابير وجهه، ثم امتطى حصانه، وغادر.

في هذا اليوم، أخذت سعيدة تساعد توتوي في بعض الأعمال المنزلية. وشعرت سعيدة بفرحة داخلية لم تتوقعها سابقاً. فلقد هدأت وكأنها قد عملت على تجاوز غلطتها في الخجل. وشعرت بشيء من الصفاء في تفكيرها، وكانت قد افتقدت لهذا منذ أمد بعيد. ومثل هذا الشعور بالنشاط ووضوح الرؤية أعطاها القدرة على أن تقوم ببعض الأعمال، ولا تؤجلها إلى المستقبل. وحاولت أن تساعد توتوي في تربية الأولاد، واضطرت أن ترفع من نبرة صوتها عليهم بقصد التوجيه الجاد، فهم لا يساعدون أمهم، بقدر ما يعيقونها عن إنجاز أعمالها. ولكن هذا لم يغضبها مطلقاً. كانت ترغب بأن تغني، وأن تضحك، ولكن، وفي كل مرة، تتذكر فيها نظرات ميرزاكول الثاقبة وغير المفهومة، تعود من جديد إلى حالة التفكير القلق، وكأنها تموت، ويداها تسقطان بلا حراك إلى جانبيها.

"لماذا نظر هو نحوي بهذا الشكل؟ هذا يعني، أنه يقصد شيئاً ما؟ وربما بدا لي الأمر كذلك؟".

وهكذا حدث: في كل مرة، تلتقي فيها ميرزاكول تغرق سعيدة في القلق والحيرة. وكان تفكيرها يتركز على اللحظة، التي سيسأل فيها هو: "أين هو إسماعيلك؟ أين تقومين بإخفائه؟.." ويأخذ قلبها بالخفقان بقوة، وتخاف، من أن يسمع كيف يدق قلبها.

عندما غادر ميرزاكول، هرعت سعيدة راكضة إلى بيتها، وأخذت بيد مرتجفة إبريق ماء بارد جداً، وأخذت تشرب، وبسرعة، وهي تسكب بعض الماء على صدرها، وقالت لنفسها: - وإذا كان قد

جاء بهدف الاستطلاع، أو أنه أراد أن يختبرني على أرض الواقع، فهل كان لي أن ألاحظ هذا؟ فهو، وبكل بساطة، سأل كيف نعيش، وسافر في طريقه. ولو أنه كان يشك في الأمر... فهو، وعلى أي حال، لن يعلم مني أي شيء. ولو أجرى معي ألف تحقيق. فلن أخون إسماعيل - ولا مرة في حياتي! أما الأخريات فهن يذرفن الدموع، ويتضرعن إلى الله: أن يعود أزواجهن سالمين! وهل زوجي غير غال بالنسبة لي، أولم أتضرع إلى الله أن يحميه من أجل طفلنا! فالله أعاد لي إسماعيل، حتى أقوم بحمايته وأصونه...".

هذه هي الرياح الجليدية القارسة تشتد مع كل يوم، حتى حل الشتاء بكل ما يمتاز فيه من برد قارس وصقيع. فطيلة الأسبوع لم تهدأ الرياح، وتساقطت الثلوج بكثافة، وتكدست بكميات كبيرة. وتغطت الطرقات بطبقة سميكة من الجليد، وكان يعرك الجليد تحت الأرجل، ويرن في بعض الأماكن، وكأن الإنسان يطأ على صفائح حديد.

لقد فرغت القرية، وخمدت في الهدوء، بينما كانت المداخن الرطبة تبعث الدخان، ومن فوقها تتشكل سحب الدخان الضبابية مندفعة بقوة الرياح نحو قمم الجبال، التي تغطيها الثلوج. أصبحت الحياة تزداد صعوبة يوماً بعد يوم.

في الغرفة الخارجية الباردة، كانت مجموعة من الدجاج تنفش ريشها، وتزدحم في الزاوية، ولا تتمكن من الخروج إلى ساحة المنزل، وتكتظ إلى بعضها حتى تجد الدفء، وهي تطبق أجفان عيونها حتى النصف، وهي تنظر بحزن إلى الإنسان. وها نحن نقوم بوضع الحبوب أمامهم، وماذا سنفعل لها أكثر من هذا! وخلف الموقد، يتم حفظ

العلف من الذرة في أكياس غزلت خيوطها محلياً. ومع كل يوم كان ينقص الكيس باستمرار - بدا واضحاً وكأن الذرة تتناقص بمجرد النظر إليها. وكانت سعيدة تجمع الحبوب في الصيف، ولكنها، ومنذ بداية الخريف قد توقفت عن الذهاب إلى المطحنة. وهناك يأخذون نسبة من الحبوب، مقابل طحنها، ولذلك من الأفضل أن تقوم المرأة بطحن الحبوب على الرحى في البيت. وفي كثير من الأحيان لم تكن تنام الليل؛ في النهار تذهب إلى العمل، وفي المساء تجلس خلف الرحى. وهكذا تحرك سعيدة حجر الرحى الثقيل يمنة ويسرة، وكلما تعبت يد تشتغل بالأخرى، حتى يأخذ الحجر بالدفء، ويتنفس حرارة من فوهة الرحى وحوافه الدائرية. أما عيناها فقد تعبتا وأنهكتا من غبار الطحن، ودوران رحى الطحين، بالإضافة إلى الآلام الشديدة في ظهرها، ولكن سعيدة لم تترك الرحى حتى تنهي العمل، وهي تفكر:

- لا يجوز أن يجلس إسماعيل جائعاً في الغد! وعندما تنهي الطحن تضع حفنة لصنع العصيدة للطفل، ومن الباقي تصنع خبزاً لإسماعيل. ولقد عاشت سعيدة والعجوز على شيء من النخالة، التي تبقى فوق المنخل، إذ كانت تطبخ سعيدة منها حساء. فمن أين لها أن تجد الحبوب للدجاج؟ وحبذا لو نجد ما يسد رمق العيش حتى الربيع القادم لأنفسنا.

كانت سعيدة تربي وتطعم هذه الدجاجات القليلة حتى يكون بعض البيض في الربيع للصغير. ولكن، وكما يبدو، قد أخطأت الحساب. فلا يوجد لحم، وعندما يأتي إسماعيل فإنها ستطبخ له دجاجة من الدجاجات القليلة. وبالطبع لو كانت هناك إمكانية توفير اللحم من الماشية، لقامت بتحضير الأكل المغذي لإسماعيل كما يجب! ولكان الأمر جيداً! وكل ما هو موجود في البيت، وكل ما

تمكنت سعيدة أن تجمعه، كانت تحتفظ به لزوجها. "أما بالنسبة لنا أنا وأنتِ، فنحن في البيت، وكان بإمكاننا أن نكتفي بالماء وحده"، - هكذا كانت تقول سعيدة للعجوز، التي بدون كلماتها كانت مستعدة أن تضحي بروحها من أجل ابنها. ورغم كل ذلك، عندما كان يأتي إسماعيل إلى البيت فإن قلب سعيدة كان يكتئب خجلاً وحياء، إذ أن ضميرها كان يعذبها جداً.

يأتي إسماعيل متخفياً، واضعاً على وجهه منديلاً وسخاً، ويرتدي فروة رثة تفوح منها رائحة الأملاح، والعفونة، والرطوبة، وهو يضعها عادة فوق المعطف، ويبدو كالمشرد عند البوابة في الليالي العاصفة والبادرة جداً. كان إسماعيل عادة يجلس إلى جانب الموقد، حتى يشعر بالدفء قليلاً، ويقوم بنفض قميصه فوق الموقد حتى تتساقط البراغيث والقمل، أما سعيدة فكانت ترقبه بنظرات حزن وأسف وهي تفكر يائسة: "آه، ماذا حل بك في هذا البرد القارس هناك؟ ولو كنت في البيت، لمنعت ذرة الغبار أن تسقط عليك!...". أما هو فكان يجلس عند الموقد كالبومة، صامتاً والشر يملأ رأسه وعينيه المتوحشتين، أما وجهه فقد بدا كاللباد، وأصبح صلباً جامداً من شدة البرد.

أدركت سعيدة ما يدور في عالمه: صعبة الحياة بالنسبة له؛ حاولت أن تلاطف زوجها، وتقترب منه، وتبعد عنه الهموم والمتاعب بأحاديث. "إن الزوج والزوجة، دائماً معاً: في المصيبة والفرح، - كانت تقنع نفسها. - وكل ما وقع على رأسي، يجب أن أتحمله. وكلي أمل أن يسلم إسماعيل نفسه، لكي يتخلص من هذا المأزق، الذي وقع فيه، فربما يشمله عفو ما. أما أنا فسأصبر... فهذه توتوي مع ثلاثة

أولاد، وتقسم رغيف الخبز بينهم بالتساوي وبالملعقة تقسم التالكان، وها هي تعيش، ولا تشكو...".

أمس الأول، عندما عادت سعيدة من العمل في ملحق التبغ، لحق بها عند الجسر ميرزاكول، وناداها قائلاً:

- توقفي، يا سعيدة!

وكما بدا لها لم يكن في صوته أي شيء يثير الشك. ولكنها قلقت، وتحفزت خلال لحظة واحدة، وهي تنتظر أكثر الأمور خطورة، وغطت شفتيها بسرعة حتى تخفي قلقها، وحتى لا يرى كيف ترتجف شفتاها. وصل ميرزاكول إليها خبباً. انحنى عن صهوة حصانه وأخذ يتفحص وجهها وتفاعلاته. أما سعيدة فقد انفعلت للغاية وفكرت في قرارة نفسها "لقد عرف! - هكذا كما يبدو؟ وما بالك لا تتكلم؟ قل ما عندك بسرعة!" - وكادت تصرخ هي بحدة. هكذا أخذت تتعذب بمرارة، وهكذا كجلمود صخر، وبكل هدوء كان ينظر إليها ميرزاكول.

- أريد أن أقول لك، وأعلمك، يا سعيدة، - تكلم هو أخيراً.

- عن ماذا؟ - سألت سعيدة، ولكنها لم تنتبه لنبرة صوتها. وهل لفظت هذا بشكل مسموع، أو فكرت به فقط؟

- ماذا بك! وماذا حصل لك؟ - قال ميرزاكول قلقاً، واحتار ماذا يقول بسبب تصرفه، الذي أقلقها: لقد أخفت المرأة، فهي لم تستلم رسالة من زوجها من زمن بعيد، وفكرت أنه حصل له شيء ما، يا للغرابة كيف شحب وجهها. - لا تخافي، لم يحصل أي شيء سيئ... لقد أردت أن أقول لك: غداً سوف نوزع كمية قليلة من الحبوب، لأسر المحاربين في الجبهة... ولذلك، أعلمك، أنه لم تدخل جميع الأسماء إلى قائمة المخصصين. واسمك غير موجود، يا سعيدة... فأنت تفهمين كل

شيء، فلا تحزني... فلقد قمنا بتوزيع خمسة أو ستة كيلوغرامات إلى الأسر كثيرة الأطفال، ومنهم جارتك توتوي... فلا تثرثري غداً، ومن الضروري أن نعطي الجميع، ولكن الكمية لا تكفي.

هدأت أعصاب سعيدة، وارتاح قلبها قليلاً...

- لا ضير في الأمر، طالما لا يوجد، فليس من مشكلة، - أجابت، وهي تعود إلى وضعها الطبيعي. "لا يلزمني هذا الكم من الحبوب: من الأفضل مساعدة أولئك كتوتوي وأولادها، أما أنا فسأتدبر أمري بنفسي"، - أرادت هي أن تقول، ولكنها لم تجرؤ، فلم تكف الإرادة.

فهم ميرزاكول إجابتها، حسب تصوره.

- انظري، يا سعيدة، لا تفكري بصورة خاطئة، - قال هو وكأنه يعتذر عن موقفه. - ففي مرة أخرى سوف نخصص لك... بشكل أكيد. فأنا أعدك بهذا... وانقلي للعجوز هذا الكلام، وإلا فإنها سوف تبدي احتجاجها: "ميرزاكول من سلالتنا، ولا فائدة ترجى منه، حتى لو كان في مجلس البلدة..." فأنا سأشعر بالسعادة عندما أحقق شيئاً لأقاربي، ولكن أنت ترين بنفسك واقع الأمر... - فكر ميرزاكول في قرارة نفسه، ونظر إلى مرجل القرية، وشاهد كيف تكدس الثلج عليه، أراد أن ينطلق بحصانه، ولكنه توقف فجأة. ونظر من جديد إلى عينيها نظرة غريبة وغير مفهومة، كما فعل في المرة الماضية، في ساحة منزل توتوي، ولكن نظرته في هذه المرة كانت أكثر وضوحاً وصراحة، فالآن، كانت مفهومة: إنه نظر بلطف ومودة وإعجاب إلى سعيدة، وكانت عيناه تقولان: "إنني عرفت، بأنك تفهمينني... إنني دائماً كنت أصدقك... وأنت أفضل إنسانة في الكون. إنني أحبك... أحبك منذ زمن بعيد...".

ارتبكت خائفة، وغطت جانب وجهها بمنديلها، وشحب وجهها من الخوف والحيرة، تراجعت سعيدة عدة خطوات إلى الخلف بحركة لا إرادية. وفي عينيها الواسعتين المفتوحتين حتى الأخير جمد كل ما فيها من إشارات التعجب. إنها كانت الآن رائعة للغاية.

- سأذهب! - قالت هي بهدوء، ولكن بصرامة واضحة.

- توقفي! - شد ميرزاكول مقود الحصان، وتردد قليلاً، ثم تركه على سجيته.

- توقفي، يا سعيدة! - كرر هو ثانية - فإذا كانت لديك بعض الصعوبات، أرجو أن تخبريني بها... فبإمكاني مساعدتك، حتى توفري العصيدة لطفلك... سأبيع معطفي، ولن أقصر تجاهك...

سمعت سعيدة، بصمت، وأشارت برأسها قاصدة الموافقة، لم تعرف، وكيف لها أن تفكر. لقد شعرت بإحساس الشكر والامتنان له، ولكن عيناها كانتا باردتين ورافضتين: "لا تمسني! لا تنظر لي هكذا، أنا خائفة منك! اتركني، سأذهب!".

أخفض ميرزاكول جفنيه بهدوء، وعندما استقام فوق السرج، نظر من جديد إلى سعيدة، وعيناه تنظران كما ينظر في العادة. وقال بصوت طبيعي:

- اذهبي، ربما ابنك الآن، يبكي...

استدارت سعيدة بعنف، وبالكاد أمسكت نفسها عن الركض. وبعد أن قطعت مسافة، توقفت ونظرت إلى الخلف عبر كتفها، وأحنت رأسها، دون النظر نحو ميرزاكول، أما هو فقد وجه حصانه نحو الضفة الأخرى للنهر. وكان الحصان يسير بهدوء، وهو لم يضغط عليه ويستعجله. وربما لأن ميرزاكول قد رفع قبة معطفه،

بدا الآن نحيفاً للغاية فوق ظهر الحصان، وكيف بدا كتفه المشوه بلا يد ساقطاً إلى الأسفل بالمقارنة مع الكتف الآخر. "يقول، إنه سيبيع المعطف الذي يلبسه... كيف هذا وهو يعاني من البرد فيه..." - فكرت سعيدة، واجتاحتها موجة من النعومة الدافئة، وغيرها من المشاعر الخفية، التي ملأت قلبها. أرادت أن تركض، وأن توقفه، وأن تنقل الدفء له بكلمة لطيفة، وأن تطلب السماح منه لخشونتها... "ماذا وجدت أنت في شخصي، علماً أنني متزوجة؟ ألا توجد فتيات حسناوات في القرية؟ وأنت ألا تعلم، أن زوجي معي الآن...".

كل شيء اختلط في رأسها. صرير الثلج الجاف تحت الأرجل كان يجد له صدى في أذنيها. وطيلة الطريق، وحتى وصلت إلى البيت كانت سعيدة تلتفت خائفة إلى الخلف، وهي تغطي شفتيها المرتجفتين بمنديلها.

البارحة، وصل إلى القرية خبر سيئ. والنسوة في ملحق التبغ أخذن يهمسن، وهن ينظرن بحزن إلى توتوي، عندما تمر من جانبهن وهي تحمل حزم التبغ على ظهرها، ويلتزمن الصمت حزناً وألماً. وإحداهن ارتدت على رأسها شال أسود، حيث لم تلتئم الخدوش على وجهها، لم تتمكن من ضبط نفسها، وأخذت تبكي بصوت عال.

- يا لبؤس الأطفال الأيتام! ولتقع مصيبتهم ومصائبنا جميعاً على رأس ألمانيا!..

لقد جاء الخبر إلى مجلس البلدة، بنعوة الشهيد بايدالي، الذي استشهد على الجبهة بالقرب من ستالينغراد.

في الآونة الأخيرة، غالباً ما كان يسمع البكاء في هذا الحي أو في ذلك الحي من القرية، وتسمع كلمات العزاء من هول المصائب

وصراخ الرجال في العزاء. "يا أسفي عليك يا باورومي! باورومي! باورومي!.. [1] - يصرخون ويولولون، وهم يركبون على خيولهم ويجولون في الساحة، وهم يتأرجحون فوق سروج الخيل من جنب إلى جنب. ومن جهة العربة المسقوفة تأتي ولولة النساء اللواتي يحطن المكان ويصدح بكاء القريبات للشهيد عالياً، ويجلس بعضهن وظهورهن إلى الباب وهن يجرحن وجوههن بأظافرهن حتى تسيل الدماء، وهن يبكين ويندبن مصيبتهن:

عنانك من الفضة،
وكنت شجاعاً، كالأسد،
العنان وحيد، معلق على الجدار، -
الشال الأسود على رأسي، -
ابنك سيثأر لك من الأعداء!..
أو، و، و، ها، إ، - ي، ي إي![2]

وحتى ساعة متأخرة من الليل استمرت النسوة بالبكاء والنحيب حزناً وأسفاً من فاجعة فقدان الشهداء من القرية، وقد انهارت قوتهن كلياً وبُحّت أصواتهن، وفي كل مرة كانت تجتمع فيها القرية بأكملها لاستقبال الشهداء وتوديعهم، كانت سعيدة تشعر بحرج مخيف. وكانت تخاف من الظهور أمام أعين الناس من أهالي القرية، وهي لم تلحظ هذه التصرفات على نفسها، وتحاول أن تختبئ خلف ظهور الآخرين. وفي أيام العزاء الصعبة والمأساوية، كانت ترغب أن تهرب بعيداً إلى الجبال، وتختفي عن الأنظار. وفي أماكن لا يوجد فيها بشر، وهناك تبكي وتنتحب لوحدها، حتى لا يراها ولا يسمعها أحد.

---

[1] باورومي - كلمة قرغيزية تعني يا أخونا. - (المترجم).

[2] نبرات وأصوات النحيب حزناً على الشخص المتوفى. - (المترجم).

وهـا هـو دور توتـوي قـد حـل، وبـالقرب مـن بيتهـا سـوف يجتمـع الناس للتضـامن معهـا، وهـي سـتنحب وتجـرح وجههـا بأظافرهـا، وعلـى أبنائها أن يقفوا مع الرجـال، ويتعلمـوا الرجولـة والتحمـل، وهـم يربطـون على جباههم زنانير الحداد السوداء بقوة، وعليهم أن يستقبلوا المعزين، وهـم يسـتندون إلى العكـازات ويصـرخون بـأعلى أصـواتهم مـع البكـاء المر "أتاموي، أتاموي، أتاموي!.." [1] يـا لـك يـا توتـوي مـن مسـكينة، لم تحس بعـد بالمصـيبة الكـبرى، الـتي حلـت بهـا! ومـا زال خـبر استشـهاد بايـدالي عنـد ميرزاكـول - وعنـد القرغيـز لا يجـوز الكـلام عـن هـذا مباشرة. وعلى الوجهاء أن يحـددوا سـاعة الإعـلان الجمـاعي. ومـع وثيقـة الدفن جاءت رسالة من قائـد الفـوج علـى عنـوان إدارة الكولخـوز، حـول استشهاد ومكان دفن الجثمان.

لقـد كتـب قائـد الفـوج، أن المفـرزة قامـت بهجـوم، ووقعـت في منطقة ضيقة بين ضفة نهر الفولغا وحقل ألغام محـاط بأشـرطة ملغومـة. وكان الوضع عسيراً للغاية. واستشـهد عناصـر المفـرزة بنيران الأعـداء. لم يتجرأ أحد أن يقترب أولاً إلى حقل الألغـام. وعنـد ذلـك تقـدم بايـدالي بمبادرة منه، واندفع إلى الشريط الملغوم. انفجرت الألغام، وتمـت عمليـة إحداث فجوة. وتم طرد العدو من الموقع.

عند سماع هذه الرسالة من قائد الفوج، قام الوجهاء بإعلان فـترة صمت حداداً على روح الشهيد بايدالي، واستمر الصمت طويلاً، وحتـى تمت قراءة الفاتحة بصمت.

- آه! - تنفس ساعي البريد كورمان بمـرارة وأخفـض حفـة قبعتـه فـوق عينيـه وقـال - لقـد كـان بايـدالي إنسـاناً رائعـاً، عـرف كيـف

[1] أتاموي - كلمة قرغيزية تعني يا أبتي. - (المترجم).

يحافظ على المياه، يداه كانتا ذهبيتين... أين بايدالي حتى يوصل المياه إلى النقطة المطلوبة، وهناك كان ينمو القمح ويعطي الإنتاج الوفير... هكذا! وأولاده ينتظرون الرسائل بفارغ الصبر: "كورمان، متى ستأتي لنا برسالة من أبينا؟". كنت أعدهم دائماً، في يوم البازار، وهم كانوا يثقون ويصدقون. وهكذا انقلبت الأمور رأساً على عقب... مصير الشعب - هو مصير القائد!

سأل ميرزاكول لدى الوجهاء حول الإعلان عن وفاة بايدالي. "طالما جاءت رسالة قائد الفوج، أن بايدالي قد استشهد، فهنا ليس بإمكاننا أن نغير شيئاً، - أجاب الكهلة. - ولكن أنت، يا ميرزاكول، استمع لما نقول. ففي هذه السنة القاسية، عندما تقوم توتوي بحمل أطفالها بأسنانها، كما تحمل القطة جراءها، حتى تنقذهم من الجوع، لا نملك الجرأة أن نخبرها بوفاة زوجها. فإذا فرغت يدي توتوي، فماذا سيكون مع أولادها؟ كلا، لا يمكننا أن نحرمها من الأمل الأخير في حياتها. ومن الأفضل أن نترك هذا الموضوع حتى الخريف: فنجمع المحصول، وعسى أن يحصل الشعب على بعض مقومات العيش، ويشبع قليلاً. ساعتئذٍ من الممكن الإعلان في المنطقة عن استشهاد بطلنا، وسندعو القرى المحيطة، ونقيم حفلة لتمجيد ذكراه كما يستحق...".

كل أهالي القرية وافقوا على اقتراح الوجهاء من الكهلة، واعتبروه حلاً عقلانياً. وقبل الخريف لا يملك أي إنسان الحق في أن يتكلم عن وفاة بايدالي. ولكن النسوة لم يتمالكن أعصابهن، فبكين خفية، في ملحق التبغ، دون أن تعلم توتوي شيئاً.

في الليل جاء إسماعيل، وأخبرته سعيدة بمصير جارهم بايدالي.

فلم يقل إسماعيل أي كلام، ولكنه حرك كتفيه بصورة غير مفهومة. فالله وحده يعرف، بماذا كان يفكر. ربما كان يأسف في داخله لوفاة بايدالي، وربما لم يأسف. فهل هرب من الجندية هكذا، وبلا معنى، وبلا سبب، وبدون مقابل يحافظ فيه على حياته؟ أما بايدالي فقد اندفع بلا تفكير من رأسه، وألقى بنفسه في نار حقل الألغام، وهكذا استشهد، وهذا ما كان يجب أن يقع على أرض الواقع. كان إسماعيل يتكلم بدون أن تفهم سعيدة أي شيء، فوجهه لا يعبر عن شيء.

شرب إسماعيل الحساء بجرعات كبيرة وسريعة، وطلب صحناً آخر من الحساء فأعطته زوجته، وقال بصوت فيه شيء من عدم الرضا:

- هل يوجد بعد؟

"من أين له، أن يتحدث عن الآخرين؟ فهو نفسه، لا في النهار ولا في الليل يعرف أي دفء كان، ويتعذب في البرد القارس، ولا يجرؤ أن يظهر عينه. زد على ذلك، أنه يعاني من الجوع، وهو محروم من الأكل حتى الشبع..." - فكرت سعيدة، وهي تبرر لإسماعيل موقفه.

قبل طلوع الفجر بساعة، غادر إسماعيل، أما سعيدة فلم تقدر على النوم، وكانت الرياح القوية تعصف بالنافذة بقوة، ورقع الثلج الكريستالية تلتصق بزجاج النافذة بكثافة، وثمة كلبة تتسكع على أطراف القرية، أخذت تنبح بشراسة على شخص ما، وبعد قليل خرست ببرودة: "سو - و - و - أوك! سو - و - و - أوك"[1]. أصيبت سعيدة بحالة من القشعريرة. وكان من المؤلم لها أن تتصور، كيف يمشي الآن إسماعيل في الظلام الدامس، والبرد القارس، والثلج

[1] سوك - كلمة قرغيزية تعني برد شديد. - (المترجم).

الكثيف، والرياح تلفه من كل الجهات متجهاً إلى مخبئه في المغارة. زد على ذلك، أن الطفل كان يبكي، فلم يعرف النوم في هذه الليلة.

في الصباح جاء ساعي البريد كورمان على فرسه. وفي الوقت نفسه كان ينفذ مهمة من مجلس البلدة بتوزيع المهمات. وكانت أطراف فروته تتقلب تحت تأثير الرياح. ولقد كان متجهم الوجه وقلق.

- أين أنت يا سعيدة! - أخذ يدق كورمان على الباب. - لقد جاء من المنطقة إينكو[1]، يطلبك للحضور! جهزي نفسك بسرعة!

هرعت سعيدة إلى الباب بسرعة، وأدركت على الفور ما في الأمر. وحتى لم تسأل، لماذا جاء أمر يطلبها. فصمتت وأطبقت على أسنانها. "إسماعيل، يا قريبي، كيف لي أن أتصرف الآن؟" - أخذت الأفكار تتصارع في رأسها. وهنا جاء أسانتاي مهرولاً. وهو يفكر أن كورمان قد جاء برسالة من إسماعيل. ولكن عندما شاهد وجه سعيدة الشاحب، خرس في منتصف الكلمة. واخذ ينظر إليها وكأنه قد أخطأ بحقها، ابتعد الولد جانباً منكمشاً على نفسه من البرد، أو من الخجل.

- وهذه أيضاً مأساة ومصيبة! - تمتم كورمان بحسرة. ولم يفهم الولد لمن وجه كورمان هذه الكلمات: إلى سعيدة أو إلى الولد، ابن بايدالي. أحجم كورمان عن الكلام كلياً، وضرب فرسه وغادر يعدو عليها.

لم تذكر سعيدة، كيف وصلت إلى مجلس البلدة، وفتحت الباب بيد مرتجفة، وخلف الطاولة كان يجلس رجل في معطف عسكري، وعلى جانبه جراب مسدس. نظرت سعيدة إليه، وكانت

[1] إينكو - كلمة قرغيزية تعني - مذكرة تبليغ بالحضور إلى جهة رسمية ما. - (المترجم).

عاجزة عن الكلام، وأخذ رأسها بالدوران، مع ألم شديد، وهربت الأرض من تحت قدميها. وخلال الطريق، كانت القشعريرة، والآلام في قلبها، وكان كل تفكيرها يدور: "هل سيقبضون على إسماعيل، ويأخذونه!" ولكن الآن، عندما دخلت سعيدة إلى الغرفة، انبعثت فيها إرادة يائسة، غرقت فيها حتى أذنيها: "لن أسلمهم إسماعيل! لا، لن أخونه مطلقاً!" وبالنسبة لسعيدة قد انقشع الخوف، فوقفت أمام الطاولة، وأخذت تؤكد على تصميمها في قرارة نفسها، وبكل تفكيرها، وأصبحت هذه القناعة بمثابة القسم، الذي قطعته على نفسها: "لن أسلم إسماعيل، لا لن أعطيه لأحد!".

- اجلسي، - قال مسؤول مفوضية الشعب للشؤون الداخلية. ولكن سعيدة لم تسمع ما قال.

- اجلسي، - كرر هو بصوت أعلى قليلاً.

أما سعيدة، فقد كانت كمن يسبح في الهواء، أو في الحلم، أخذت كرسي بلا مسند وجلست. أنهى المحقق أسئلته، وكتب مطولاً وهو يدون إجاباتها عن الأسئلة الأولية التحضيرية، وينظر إليها، وهو يفكر بشيء ما. ثم أعلن لها، أن زوجها قد هرب من القافلة الحربية وبحوزته بندقية من سلاح الجيش مع الذخيرة.

- أين هو الآن؟ - سأل المسؤول عن التحقيق.

- لا أعلم، أنا لا أعلم شيئاً، - أجابت سعيدة.

- لا تخفي الحقيقة، فإننا سنجده على أي حال. فإذا كنت تريدين له خيراً، دعيه يأتي بمحض إرادته. وعليك أن تساعدينا...

- لا أعلم، أنا لا أعلم شيئاً. لقد تم استدعاؤه إلى الجيش، والتحق، وغير ذلك لا أعلم شيئاً. هل هرب أو ما زال في الجيش، فلا أعلم شيئاً...

ومهما حاول المحقق أن يسأل، ومهما حاول أن يقنعها بأن تغير موقفها، كانت سعيدة تجيب باختصار: "لا أعلم" أما هي فقد كانت تفكر في قرارة نفسها: "لست عدوة لذاتي! افعلوا، ما تريدون، ولو أردتم اقتلوني، فلن أقول لكم شيئاً!".

- إنني، لا أعلم شيئاً! - أكدت هي ثانية، وثالثة...

عندما أنهى المحقق الأسئلة، مشت سعيدة إلى الباب للخروج، وهي تجمع ما تبقى لديها من قوة، حتى لا تقع، وحتى تسير باستقامة مباشرة. وعند باب الخروج إلى الشارع التقاها ميرزاكول. كان يسير مسرعاً من مربط الخيل، وهو يدخن سيجارة خلال مسيره. كان مضطرباً ومحتقناً جداً وكأنه يعاني من مرض ما، ووجهه أصبح مدبباً، ووجنتاه قد برزتا وعم وجهه نوعاً من الشحوب، الداكن، وتحت ضغط الرياح، كانت أطراف معطفه المصنوع من الجوخ الرمادي تلوح من خلف كتفه بلا يد، أما قبعته فقد كانت منحنية بشدة فوق حاجبيه.

عندما شاهد سعيدة، توقف ميرزاكول، ونظر إليها نظرة متفحصة من تحت جبهته.

- كنت هناك؟ - أشار هو برأسه نحو باب المحقق. - هل قلت؟..

- وما عليّ أن أقول؟ فأنا لا أعلم شيئاً، - أجابت سعيدة.

- هكذا، إذن! - التزم ميرزاكول الصمت، وضحك بمرارة، ثم قذف عقب السيجارة، وداسه بجزمته، وحدق بحاجبيه بحدة، وسألها بصورة مباشرة:

- تفكرين أن تعملي عملاً جيداً وخيراً بالنسبة له؟ وماذا بالنسبة لضميرك أمام الشعب؟ فإلى أين ستهربين من هذا الواجب؟ ونحن الرجال جميعاً من السلالة نفسها، وكل من يحمل قبعة على

رأسه، - غادرنا جميعنا، ولم يبق واحد منا على الإطلاق. وفي الأيام الخيرة، وفي الأيام الصعبة القاسية - فليحفظنا الله، وعسى الله أن لا نبتعد عن الشعب! وإذا ابتعدنا فالعار ثم العار علينا جميعاً! أنت تفهمين هذا؟ أجيبيني: أنت تفهمين؟... ما دام الوقت مبكراً، أحضري إسماعيل، وليذهب إلى خدمته، ويحارب حيث يحارب الجميع.

أطبقت سعيدة يدها على رقبتها بإحكام. وكل كلمة من كلمات ميرزاكول نزعت من هاتين اليدين ذلك الذي لم يكن بإمكانها أن تفعله في يوم من الأيام. وكلمة أخرى من كلماته، وكل شيء سينتهي: لن يكون بإمكانها أن تقاوم، وستقع على الأرض، وتعترف بكل شيء...

- أنت... أنت لا تصفعني بالضمير! - صرخت سعيدة بجنون.

وهذا كان آخر ما كان بإمكانها أن تفعل، لقد فقدت بصيرتها تحت ضغط اليأس القاتل والألم، وهجمت بلا وعي نحو ميرزاكول...

- ربما، هو هرب من الجيش! فمن أين لي أن أعلم؟ ولكل إنسان طريقه في حياته ومصيره، وكل إنسان يعرف كيف يصون نفسه. وما دخلك في هذا الأمر؟ أو أنه قطع الطريق أمامك، أو نافسك بشأن ما؟ وإن المكان يضيق بك بوجوده؟ أو ترغب، أن يعود الجميع مشوهين مثلك؟

ذهل ميرزاكول وجمد في مكانه، أما بقية يده المقطوعة فكانت تتحرك وتهتز. سحب كم المعطف من الجيب، واحمر وجهه واحتقن بالألم والغضب. وفتح فمه، وأخذ يشهق من الهواء حتى ملأ رئتيه.

- هذا يعني، إنني عدت عاجزاً مشوهاً، لأنني فاقد لعقلي أكثر من زوجك إسماعيل؟ - ابتعد ميرزاكول قليلاً، انحنى على الأرض، وكأنه يبحث عن شيء في الأرض، ثم ركض نحو سعيدة. رفع السوط فوق رأسه، وبدأ يجلد سعيدة على كتفيها. أما هي فلم تصرخ، ولم تبتعد من مكانها، وفوق رأسها كان يصفر السوط في الهواء، وسعيدة كأنها قد تجمدت في مكانها تنظر إلى القطعة الباقية من يده وهي تتحرك كالجناح المقطوع في الكم الطويل للمعطف. ولمحت لجزء من الثانية، أمام عينيها كيف كان يعض ميرزاكول على شفتيه حتى سال الدم منهما، وكيف كانت تبرق عيناه غضباً. وبعد ذلك رأت، كيف حاول محاولة فاشلة أن يكسر السوط فوق ركبته. وهنا أيضاً حاولت بقية اليد المبتورة أن تقوم بدورها، وهي تتحرك إلى الأمام والخلف.

بعد العجز عن كسر السوط، جمع جهده وقذف به بعيداً إلى سطح أحد البيوت وركض بعيداً عن الأنظار، وهو يضم إلى صدره كم المعطف لليد المبتورة كما لو أنه يضع يده على جرح ينزف دماً غزيراً. تابع الركض عبر الحواكير، وعبر السواقي والكثبان الرملية، والمخلاة المهترئة الرثة، التي يأخذها معه إلى الحقل، كانت تلوح من على ظهره وتصدم بجنبه يائسة.

حدث كل هذا، وكأن سعيدة كانت غائبة عن المشهد، فلم تفهم ما جرى، فأخذت تنظر برعب في أثر ميرزاكول. وهي الآن، وعندما أحست بألم لسعات السوط المؤلمة على كتفيها، فقد أخذ الغضب يحبس أنفاسها، وأرادت أن تصرخ، وأن تبكي بمرارة.

ثم لملمت نفسها، ومشت في الشارع، دون أن ترى شيئاً أمامها؛

فالرياح القوية تلفح عينيها الجافتين والجامدتين بلا حراك، ورجلاها تتلعثمان في الثلوج على الطريق. والأفكار كانت تقطع أوصالها بصورة حادة ومؤلمة كالجمر على الرقبة. "لقد ضربني، وأهانني! سأقول لإسماعيل فهو من سيثأر لي! - أكدت على هذا، ولكنها ما لبثت أن غيرت رأيها: - كلا، لن أقول له: فإسماعيل سيأتي إلى القرية، وبإمكانهم إلقاء القبض عليه. ومن الأفضل أن ألتزم الصمت، وأصبر، ولكني لن أغفر هذا إلى الأبد، وحتى موتي... وليس من العبث يقول الناس: "الأخ للأخ، عدو"[1]. وبالنسبة لميرزاكول، فهو يكره إسماعيل، لأنه ما زال على قيد الحياة، ويتصرف كحر طليق... عسى أن نمضي هذا الشتاء، وبعد ذلك سينفتح الطريق إلى المنحدر وساعتئذٍ سنغادر من هنا إلى تشاتكال، وسنعيش هناك، كغيرنا من الناس، دون أن نختبئ من أحد... فلعنك الله يا ميرزاكول! إنني لن أنظر في وجهك ولا مرة في حياتي...".

عادت سعيدة إلى البيت، وجلست واضعة وجهها على ركبتي حماتها الضعيفتين، وضمت العجوز المسكينة، التي لا حول لها ولا قوة، وأخذت تبكي:

- لقد ضربني ميرزاكول يا أمي، ضربني...

بكت سعيدة طويلاً، ولم تقدر أن تهدئ نفسها، ومن خلال بكائها ودموعها، كانت تسمع صوت نحيب حماتها الخافت المتقطع:

- أرجوك يا قريبتي، يا ابنتي، الفاضلة، المطعمة لنا جميعاً، أنا وإسماعيل والطفل، ... كل الأمل عليك وحدك، فأنت سندنا الوحيد،

[1] عند القرغيز - كلمة أخ تشمل كل الرجال من سلالة واحدة، إذ يعدون أنفسهم إخوة. - (المترجم).

ودعامة بيتنا، إنني أرى كل شيء، وأعرف كل شيء. وسأصلي من أجلك قرناً كاملاً في حياتي ومماتي... اصبري على هذه الفعلة اللعينة من قبله واسكتي عليها... وأدعو اللّه أن يحاسبنا ويحكم بيننا بالعدل مع ميرزاكول، إنه نسي واجبه تجاه أبناء سلالته...

في الليل التقت سعيدة إسماعيل عند المسيل الضيق، ولقد عاد إلى المغارة من هناك، دون أن يدخل إلى القرية.

في الربيع لم يبق عند أهالي الريف شيء يذكر من القمح، وأخذ الناس يعيشون في الحرمان، ويحلمون بساعة انتهاء الحرب، وتوقف إراقة الدماء، وعسى أن يكون الموسم القادم جيداً، ولو نضج الشعير لكانت قد حلت نصف الأزمة، وبعد الشعير ينضج القمح، ولكن كيف لنا أن نعيش لتلك اللحظة. في بداية الربيع، تضعف المواشي، وتصبح كالأشباح، جلد وعظم، والإنسان كذلك...

أمضت سعيدة أصعب أيام حياتها. وبعد صدامها مع ميرزاكول، امتنع إسماعيل عن القدوم إلى البيت. لا في النهار ولا في الليل، ولم يخرج من المغارة. كانت سعيدة تذهب بحجة الحطب وتأخذ له الغذاء. وإذا لم تتمكن في النهار، كانت تذهب في الليل. وكان كل شيء مقبولاً بالنسبة لها، وراضية عن نفسها في هذا المصير القاسي، وكان يقلقها شيء واحد: أصبح إسماعيل يعاني من ضعف في جسمه لسوء التغذية، وقلتها، فأخذ يعاني من الجوع. وهو يأكل كل ما تأتي له به حتى صغيرات الحبات: وربما يأكل عندما تأتي له سعيدة له بالغذاء حتى الشبع، ولكن عيناه تبدوان وكأنهما جائعتان، وبحاجة لكمية أكثر من الطعام، ولكنه أخذ يسأل مستفسراً:

- وفي البيت هل بقي شيء ما، أو ستموتون من الجوع؟ قولي لي، لا تخفي شيئاً، قولي الحقيقة كما هي.

- لماذا تقول هكذا! - احتجت سعيدة. - المهم أن نبقى أحياء، وما دام الإنسان حياً سيجد لقمة للعيش...

كانت سعيدة تنهض مع طلوع الفجر المبكر وتتجه إلى بيادر السنة الماضية، وهناك كانت تفرش على الأرض فوق الثلج كيساً واقياً من الرطوبة، وتبدأ بالعمل الشاق حتى المساء. فهي كانت تقلب الثلج والتراب، لتفتش بين القش المتبقي من السنة الماضية بعد جني المحصول، عن بعض السنابل، التي هربت من شفرات الدراسة، فكانت تجمعها حبة حبة، سنبلة وأخرى، حتى يتكون لديها صرة صغيرة من الحبوب المبلولة الهزيلة والمجعدة. وكانت تقوم كل ليلة بطحن بعض الحبوب بالرحى، لتحضير الخبز لإسماعيل. ولكن كم من الوقت من الممكن أن يستمر الوضع على هذا الحال؟ لقد كان يتعاظم حلمها أن تملك عجْلة، وعسى اللّه أن يوفقها وتحمل، وتلد فيما بعد، وساعتئذٍ سيكون الحليب، وسيكون لإسماعيل الزبدة. أما إسماعيل فقد انقبض على نفسه، وأخذ يفقد أعصابه ويتوحش، وكأن كل العالم كريه للغاية بالنسبة له، وكان يلتزم الصمت بغباء، ولا يسمع الإنسان منه كلمة جيدة... فماذا يدور في عقله؟ وعن ماذا يفكر بلا تراجع؟ وإذا فتح فمه، فهو يسأل عن شيء واحد: كم بقي من الوقت حتى يسمحون بالتوجه إلى المنحدر، وأية الطرق ستكون أكثر أمناً للتوجه إلى هناك... وأكثر ما يتحدث عن الغذاء، ويفكر كما هو واضح عن هذا أيضاً. وعندما يدور الحديث عن اللحم، يسيل لعابه، ويأخذ بقذف هذا اللعاب، باصقاً إياه بعيداً، بعصبية شديدة، ويشتم في بعض الأحيان وبلا سبب مكتئباً:

- لقد أصبح دمي بارداً كلياً: فالماء أصبح فيه أكثر من الدم... زاد الماء فيه كثيراً...

أصبح إسماعيل في الآونة الأخيرة، نادراً ما ينظر بعينين فيهما شيء من الود، وإذا حدث أن نظر مع شيء من الود العسير جداً، يعود للصمت، الصمت المتوحش البري. فعن ماذا يفكر في هذه الدقائق؟ عسى أن لا يفقد عقله...

"ربما هو مشتاق لابنه؟" - فكرت سعيدة ذات يوم. وفي اليوم التالي، غسلت الطفل جيداً، وألبسته ثياباً نظيفة، ولفته ببطانية وخرجت معه إلى الشارع.

- إنني ذاهبة إلى أقاربي، عند المضيق الصغير، - هكذا أجابت على أسئلة الجيران.

أما هي فقد ذهبت إلى إسماعيل. وفي هذا اليوم كانت سعيدة مسرورة. وعادت إلى القرية بعد قضاء يوم كامل...

أصبح الطقس يتحسن نسبياً، وهذا يشير إلى أن الربيع سيبدأ باكراً في هذه السنة. وأصبح الثلج المتكدس في الطرقات كاللباد السميك، الذي يتمزق بسرعة غريبة بسبب العث، وهذا ما حدث مع الثلج، إذ إن الأرض أخذت تتنفس، وأخذ البخار يتصاعد من بين شقوق الثلج، وانتشر فوق الوادي هواء دافئ، بينما سالت المياه الذائبة في السواقي، فإن هذه الموجة الدافئة ساعدت بتسريع ذوبان الثلوج المكومة.

ومن جهة البيدر على أطراف الأرض، يأتي التنفس الدافئ المخزن: ثمة إنسان هناك يقلب القش ويبحث عن حبات القمح. هذه هي سعيدة. إنها ملأت كيساً، وحملته إلى درفة فوق رابية، وبالدعاء والرجاء تنادي إله الرياح. وكما يبحث المنقبون عن حبيبة الذهب في

الرمال، أخذت سعيدة تبحث عن حبيبات القمح في القش. يا له من عمل مضنٍ ومتعب. أما بالنسبة لسعيدة هذا ليس بالمضني: ومهما حصل، ومهما كانت الصعوبات عليها أن تطعم إسماعيل حتى نهاية الشتاء، وعندها سنرى ماذا سيعطينا الله، وسيفتح الطريق للعبور إلى مقصدهم.

فهناك خلف تلك السلاسل الجبلية، والتي من العسير اجتيازها لكثرة الثلوج الزرقاء البيضاء، التي لم تمسها الأيادي بعد، توجد منطقة تشاتكال.

لقد أصبحت سعيدة تتخيل تشاتكال وكأنها أرض الحكايات السعيدة. فهناك، تعم الخضرة والجمال كل الهضاب والروابي، وتنتشر قطعان المواشي في المراعي الوافرة. وهناك، وعلى كلا ضفتي النهر نصبت الخيام البيضاء بين أشجار الحور البيضاء، وتشبه البيض المبعثر فوق بساط سندسي. وإلى جانب الخيم، تشعل المواقد، وعليها قصعات كبيرة مليئة باللحوم... والناس يتنقلون من يورتا إلى أخرى... عندما سيفتح المضيق، سوف تتجه فوراً مع إسماعيل إلى هذا العالم العجيب الرائع خلف الجبال العالية. لقد كان إسماعيل هناك في زمن قديم، إذ زار أقاربه هناك... وهناك لم يعلم أحد أن إسماعيل هارب من الجيش، ولن يكون هناك من يلاحقه، ويزعجه كل يوم في حياته. وهناك لا يوجد أشرار، وفاسدون، كميرزاكول هذا... وهناك سيعمل كل منهما: إسماعيل سيعمل راعياً في الكولخوز، أما هي ستكون مساعدة له...

"لقد بقي من الوقت قليلاً، ها هو الربيع خلف الأبواب. لقد انتظرت طويلاً، وصبرت، أما الآن سأصبر حتى الأخير! - فكرت سعيدة الحالمة، وهي تنظف حبيبات القمح وهي تنقلها من كف إلى كف. - والمهم في الأمر أن أصون إسماعيل. ولا بأس في الأمر، أن

أهالي القرية يهمسون فيما بينهم، وكأن إسماعيل يختفي ليس في القرية، بل في الأراضي الكازاخية بعد الحدود، عند أسلافه... وهذا شيء جيد، فليتكلموا هكذا... وساعتئذٍ سنبيع العجلة، ونشتري طحيناً للطريق، وسنركب العجوز على حمار، وفي الليل سنخرج من القرية، ولنغادر من هنا... نعم سنغادر من هنا...".

سكر النسيم الربيعي الدافئ... وطابت الأحلام: تنسى، ما تمتص المعدة تحت بابها العلوي، ولا هم لها إلا أن تكون مليئة.

وفي المساء، عندما كانت سعيدة تطحن التالكان، دخل أسانتاي. وقد هزل الولد بشكل ملاحظ خلال فترة قصيرة: وتحت عينيه تكونت بقعة زرقاء وسوداء كثيفة، وبدت يداه من كمي سترة أبيه نحيفتين للغاية.

- لقد أرسلتني أمي كي تعطيني نارة، - قال بخجل وهو يحول وقفته من رجل إلى رجل، وينظر بشغف إلى كومة التالكان عند الرحى.

فالأولاد يبقون أولاداً! وكيف لا يتأثر الإنسان بنظرة الطفل، الذي تخبرنا عيناه بإلحاح، أنه يريد أن يأكل! وضعت له سعيدة في يده كمشة تلكان. أحنى الولد رأسه إلى الخلف، وفتح فاهه، وملأه بالتلكان وأخذ يتنفس عبر أنفه بشدة، وهو يلحس ذرات الدقيق عن شفتيه. أراد أن يشكر سعيدة، ويقول لها كلمات جميلة. فابتسم بود، وبان التلكان يلطخ شفتيه:

- يا سعيدة - تعالي عندما تلد بقرتنا، سوف تعمل لنا أمنا شمندور[1] وهو لذيذ جداً، أطيب من اللبنة!

---

[1] شمندور - كلمة شعبية تعني - حليب البقرة بعد الولادة، والذي يسمى لبأ. يسخن على النار مع نسبة 50% حليب عادي، ويحرك على النار الهادئة بصورة دائمة حتى يصل إلى درجة الغليان تقريباً فيصبح كاللبن الرائب.

- فلتسلم يا قلبي العزيز، عسى أن تتحقق رغبتك! - قالت سعيدة، وقد أحست بمشاعر الولد الرقيقة، وضمته لصدرها وقبلته على عينيه. - عسى أن يحقق الله لك ما تريد، وسيكون لبأ. وسيكون لبناً رائباً. وعسى أن تلد البقرة بسلامة! ساعتئذٍ ستجلب الحليب لطفلنا الصغير، لقد باشرت أسنانه بالظهور!

تذكرت سعيدة، أن توتوي وأولادها لا يعرفون شيئاً حتى الوقت الحاضر عن استشهاد والدهم. وكانوا ما زالوا ينتظرون الرسائل منه. وبدا لها أن الولد يعرف، أو يحزر بما تفكر سعيدة.. وسألت بالمناسبة - كيف حال أمك، هل أصبحت أحسن من ذي قبل؟ البارحة لمحتها تسير لتأتي بالماء.

- الآن، هي مضطجعة، رأسها يؤلمها جداً. أردت أن أبقى إلى جانبها في البيت، حتى أساعدها، ولكنها لم تسمح لي، إذ قالت: إذا لم تنجح، وتنتقل إلى الصف الثاني، سيغضب والدك منك عندما يعود من الجبهة.

- هكذا، وكيف تفكر؟ بالطبع، سوف يغضب منك، ويعاقبك! سيعود و...

كان الولد يحرك رموش عينيه الطويلة بصورة دائمة، وفجأة تنهد ليس كما يتنهد الأطفال، إذ بدت حسرة الكبار عليه، وتنفس بصعوبة.

- ما بك، هل من الممكن أن تتنهد بعمق هكذا! - قالت سعيدة وهي ترفع من وتيرة صوتها مؤنبة إياه. - سيعود والدك، ولا تتحسر ثانية هكذا، هذا ليس بالشيء الجيد!

بعد هذا، أخذ الولد جمرة نار من الموقد، وخرج. جلست سعيدة

طويلاً إلى جانب الرحى فاقدة القدرة على العمل، إذ رفضت يداها التحرك، حيث غابت منهما القوة. وهذه الحسرة في تنهيدة الولد، وهو ما زال طفلاً، أثارت كل آلامها وأحزنت كيانها. إنه ما زال في نعومة أظفاره، ولكنه يتفهم كل شيء بقلبه. "يتيم! - فكرت في داخلها، وضغطت الحسرة في كيانها، حتى لا تبوح بكلمة. - نعم، وحتى أمه توتوي، تحزر ما حدث، ولكنها تلتزم الصمت... وماذا عليها أن تفعل، يا لها من فقيرة؟ عليها في هذه الظروف القاسية أن تطعم ثلاثة يتامى. ورغم أن الكولخوز يساعدهم بالقليل، وبصعوبة يعيشون بهذا الشيء المحدود. فمنذ فترة جاءت بكمية من القنبز من مستودع الكولخوز وهي ليست كافية - نصف كيس - وعلى أي حال، قليل أحسن من لا شيء... وبقي الأمل الوحيد في تحسين وضعهم الغذائي هو ولادة البقرة، هم يتوقعون ولادتها قريباً، ولكنها تزيد عن موعدها في كل مرة، ففي السنة الماضية تأخرت بحدود الأسبوع - وكانت توتوي في الإصباح تخاطبها، وتشتمها على طريقتها. "لقد ضجرت منك. كم من الممكن أن أنتظرك، حتى تنفقي وأرتاح منك! كم سأنتظرك، حتى تلدين؟ فقد فرغ صبر الأولاد بلا حليب، وأنت لا يهمك الأمر، تتجولين على كيفك، وتأكلين العلف بلا جدوى!" وهذا، حقاً ما قالته، فلو كان الحليب موجوداً، لأصبح الأمر أسهل بالنسبة للأطفال. زد على ذلك، كيف سيكون مصيرهم الآن؟ إن أمهم توتوي، أصبحت تمرض كثيراً، ويا للأسف على بايدالي، فهو قد رمى بنفسه فوق الألغام، وعرف أنه سيستشهد، وقذف بنفسه فداءً لرفاقه... إنه كان إنساناً طيباً للغاية... هذا مصيره... سيعيشون... سوف يكبرون بشكل ما، وسيعيشون كغيرهم من الأطفال. بالطبع سيكون الأمر صعباً،

بالنسبة لهم... وعند كل إنسان مصيبة مرة. فعندهم مصيبتهم، وعندنا مصيبتنا، وعسى أن نتمكن من المغادرة إلى تشاتكال، وربما تكون الأمور أفضل... وذات يوم سألتني توتوي، وكأنها مصادفة، عن غير قصد: "حقاً ما يقولون، أن إسماعيل قد هرب من الخدمة العسكرية؟" وماذا عليّ أن أقول لها؟ فأجبتها: "لا أعلم، ربما، أنه هرب، ولكنه لم يأت إلينا، ولم ينم هنا". فمن يصدق، ومن لا يصدق... وفقط ميرزاكول، عسى أن لا يراه مطلقاً، فهذا لا يرغب به. جلست سعيدة طويلاً بلا حراك، حاملة هموم الدنيا على كتفيها، وكلما طال الوقت، ومرت الدقائق، ازدادت ضبابية الهموم والقلق عليها. ومن رأسها لم يخرج منظر الولد، وتنهيدته الرجولية، وعيناه الجائعتان. فأحست سعيدة بعذاب المأساة القادمة.

خرجت سعيدة إلى ساحة المنزل. وأخذ الطقس يسوء بعد الظهيرة؛ وازداد سوءاً في الليل. وأخذت الرياح تطرد الغيوم أمامها من جهة الغرب وألقت هذه الغيوم بظلها الأسود حاجبة النجوم في البعد عن الرؤية. وازدادت الظلمة ظلاماً. ولم يعد الإنسان يرى الجبال، حتى القريبة منها، أما القمر فقد كان يسبح في اتجاه معاكس لمسيرة الغيوم، ويختفي خلفها من حين لآخر. وكان القمر، يختفي كلياً لبعض الوقت، ويعود مقنعاً بشال أسود مظلم، وبالكاد يعطي ضوءاً خفيفاً مشوباً بتدرنات ظلامية تسببها الغيوم السوداء. "قريباً سيسقط الثلج... فكيف سيتدبر إسماعيل أمره هناك؟".

في الصباح ذهبت سعيدة لتحضر الماء. وتكدست الغيوم وهي تقلص ارتفاع السماء عن الأرض. وأخذ يتساقط الثلج الربيعي المشبع بالرطوبة. ومجرد أن تجاوزت سعيدة الحاكورة حول المنزل، سمعت

صراخاً في ساحة بيت توتوي، وأصوات بكاء تعم الحارة. وفي الشارع المقابل سمعت أصوات فرسان الخيالة، وقرع حوافر خيول. "ماذا عندهم من مشكلة؟" - قلقت سعيدة جداً، قذفت السطل جانباً وهرعت راكضة إلى ساحة بيت توتوي. "لقد قرروا أن يبكوا بايدالي في الخريف، ربما، ثمة واحد طويل اللسان قد أخطأ وصرح بالأمر؟" - وأخذت تفكر بتصور ما لحل الحزورة، واستطلاع ما في الأمر.

دارت سعيدة حول المدخنة، ودخلت إلى ساحة بيت توتوي، وفجأة توقفت مندهشة، ومن بين ازدحام جمهور الناس خرجت توتوي: شعرها كان منفوشاً، مبعثراً، والعباءة كانت تلوح، إذ ارتدت كماً، وتركت الآخر يجر على الأرض. ركضت إلى باب الملحق، وصرخت مفجوعة، وهي تضرب نفسها بكلتا يديها على صدرها:

- انظروا، يا بشر، يا أعزائي، يا أقاربي، انظروا، لقد كسروا القفل وأخذوها! أو - ويا للمصيبة يا مصيبتي، أو - و - لقد عاقبني الله، أو - و يا مصيبتي!

ثمة شخص صرخ بأعلى صوته:

- وهل أنت قمت بربطها في المساء؟ وهل أقفلتي الباب جيداً؟

- وكيف أنتم تفكرون، بالطبع أنا. وحتى تلمست درتها، لقد أعطت درة قبل الولادة... لقد جن جنون الأطفال وهم ينتظرون الحليب! كيف غفلت، ولم أحرس البقرة كما يجب؟ ولو كنت مريضة! آه، عسى أن تجف يداي، وتجف حتى النهاية بلا حراك.

عندما أدركت سعيدة حقيقة ما حصل، أذهلت، وأفجعت متألمة. وتذكرت كيف كانت تتحدث البارحة مع الصبي أسانتاي، وكيف كان يتكلم عن "الشمندور"، وهو ينتظر الحليب، وكأنه

ينتظر حصول معجزة خرافية من الحكايات الأسطورية. وها هو الآن يقف أمام نظرها، نحيف وواهن، رقبته طويلة ونحيفة جداً، وهو يرتدي سترة والده، ومن كميها تخرجان يدان ضعيفتان للغاية: كان يقف بكل ود وبراءة، يبتسم وعلى شفتيه آثار التالكان.

"فمن كان بإمكانه أن يقوم بهذه الفعلة الدنيئة، يا لها من نفس وقحة ودنيئة وسوداء تحرم هؤلاء الأطفال؟ - فكرت سعيدة ناقمة على هذا التصرف، وعصف الثلج بقوة وملأ وجهها، وسال الماء على رقبتها. كانت تقف جامدة، ولم تتمكن من التقدم، وتابعت أطفال توتوي وكيف ينظرون إلى هذه المصيبة، التي حلت بهم، وكل واحد منهم يبكي ويتمسك بأطراف ثوبها. أما أصغر واحد فيهم، وكما يبدو، نهض لتوه من فراش النوم، وكان يركض خلف أمه حافي القدمين، في الثلج المائع قليلاً، وصرخ خائفاً: "ماما!، ماما!" ولكن توتوي لم تأبه، وكأنها لا تسمع، وهي تركض من جنب إلى جنب في ساحة المنزل، وهي تصرخ بصوت متقطع وغاضب:

- لو كان بايدالي في البيت، فأي لص يجرؤ أن يدخل إلى ساحة المنزل! لعن الله البيت بدون رجل!

"سيمرض الولد بشدة، لقد ازرقّ كله!" - همست سعيدة. أرادت أن تركض إلى الطفل، وتمسكه من يديه. ولكن، وفي هذه اللحظة خرج ساعي البريد كورمان من بين الناس. أوقف الطفل، وتمعن في رجليه الحافيتين في الثلج، وقد احمرّ لونهما، وعلى طرف من السرعة حل زناره وخلع فروته، ثم غطى الطفل بها وحمله إلى بيته. وثمة إنسان رفع عن الأرض الزنار، الذي أوقعه كورمان على الأرض، ونفض الثلج والوحل عنه، ومسحه بعناية بيديه. وعندما مر كورمان

من جانب سعيدة، شاهدت كيف ضم هو الطفل إلى صدره، وهو يغمره بفروته، ويبث عليه أنفاسه الدافئة.

- سوف نوزعكم إلى ثلاثة بيوت، وسنتحمل تغذيتكم، وتربيتكم، ولن يلحق بكم، أي أذى، لن نتركككم لوحدكم!

- كان يتكلم كورمان مع ذاته، وكانت لحيته تهتز، وقد تبللت عيناه بالدموع.

لقد حضر معظم سكان القرية تقريباً إلى بيت توتوي. بعد أن سمعوا بالحادث الإجرامي الغريب! حقاً، لقد حدث سابقاً، إذ سرقوا أبقاراً من قرب المنازل وكذلك سرقات الأغنام وغيرها. والآن هرع الناس إلى بيت توتوي، ليس لأنه تمت سرقة البقرة، ولكن، لأن هذا المجرم قد مد يده على حق أكثر الناس قدسية واحتراماً في القرية: "ومن تجرأ أن يمس أرملة وأيتام أبناء الشهيد بايدالي؟" لقد صمت الناس متجهمين، ولكن أرواحهم كانت تلتهب بالدعاء حقداً على من قام بهذا العمل، ويلعن الناس كل من تخوله نفسه أن يقوم بمثل هذه الأعمال الإجرامية الدنيئة. ولقد مر ميرزاكول على حصانه من جانب البيت. وكان يتجول في الشوارع، وأخيراً أخذ يعدو، ودخل إلى ساحة منزل بايدالي، وكان برفقته الراعي باربي، وكان دخوله إلى الساحة كالإعصار، وكان كم معطفه الخالي يلوح بخفقان من جهة إلى جهة. ترجل عن حصانه بقوة، وقال بصوت عال:

- استعدوا أيها الرجال والنساء، وجهزوا أنفسكم كما يجب، فمن لديه حصان، على حصانه، ومن ليس لديه ما يركبه فعلى الأرجل، وانتشروا في جميع الهضاب والروابي، وفي المضائق والمغائر! وسنبحث في كل مكان، ونسأل ونحقق - والبقرة - هي نصف

المشكلة، والنصف الآخر، علينا أن نجد هذا الكلب القذر، ونريح الناس منه.

- حقاً تقول! - صاح الشعب بصوت واحد. - فاللص لم يتمكن من الابتعاد كثيراً. وإذا ذبح البقرة، سنجد اللحم، وإذا لم نجد آثاراً للذبح، هذا يعني أنه قد خبأ البقرة في مكان ما، في بيت مهجور قديم (كورغان[1])!..

- هكذا يجب أن يكون! فلنفتش، كل هذه الأماكن!...

وعندما خرج الناس إلى الشارع، طلب ميرزاكول من المشاركين في الحرب ما يلي:

- أنتم أيها الرفاق، الجنود، أعطيكم مهمة... اقتفاء الطريق الذاهب إلى المدينة، ولهذا عليكم أن تركبوا خيولاً وتذهبوا لاقتفاء الأثر، كما يجب. فأجابوا على الفور:

- نحن جاهزون، ولكن ليس لدينا خيول.

- خذوا من الإسطبل! - قال ميرزاكول آمراً لهم.

- من الأسهل على المدير أن يشنق، من أن يعطي أحصنة من الإسطبل لمسافة قصيرة، فكيف سيعطينا لهذه المسافة الطويلة، فهو يجهز الخيول ليقوموا بحراثة وزراعة الأرض للموسم القادم.

- لأجعل الشيطان يأ... المدير! - خرج ميرزاكول عن طوره، وغضب، واعتلت بقية يده المبتورة للأعلى قليلاً: - اذهبوا الآن وضعوا السروج على الخيل، فأنا سأجيب، وأنا أتحمل المسؤولية!..

ذهبت سعيدة مع أهالي القرية في مهمة البحث، في كافة الأنحاء. أما ميرزاكول كالحدأة فقد نام فوق رقبة الحصان، وانطلق

[1] كورغان - بناء قديم، مصنوع من الطين والحجارة، وهُجر من سكانه. - (المترجم).

يعدو إلى خلف التل، وذهب باربي إلى جهة أخرى، وهو يحني قبعته فوق جبهته المتجهمة، وبدت قسمات وجهه النحيف مخيفاً ووجنتاه العظميتان. وهنا أخذت سعيدة تتعذب من حل لغز رهيب وخطير. وكيف لم تفكر بالأمر مسبقاً؟ "وماذا لو وجدوا إسماعيل؟" لقد أصيبت سعيدة بحالة من فقدان العقل، وانطلقت إلى جهة الهضاب البعيدة، وإلى الروابي والمضائق.

أما الضباب فقد انتشر كما ينتشر الدخان السائل المائل إلى البياض، وأخذ يتحرك في الوهاد العميقة، لا حول له ولا طول، انقطع عن الجميع، ولم يعد قادراً على اللحاق. وكانت الأرض تميد تحت الأقدام، والثلج المائع قد بلل الثياب، وأخذت الرطوبة تشكل ثقلاً على الأكتاف.

ولقد كانت سعيدة مثل العصفورة، التي تحافظ على عشها، تدور وتدور ولا تعرف إلى أين تتجه، خائفة أن تقود أحداً ما إلى ملجأ إسماعيل، وكانت تنظر من حولها خائفة: هل يوجد أحد ما، وهل يقتفي أثرها أحد ما؟.. أخذت تركض من جنب إلى جنب قلقة، حزينة، حتى أخذت تمشي دون أن تحدد وجهة ما.

"آه يا إلهي، أرجوك أن تبسط يدك في هذه المرة أيضاً، وتعمي الناس عن مغارة إسماعيل! - تضرعت، وهي ترفع يديها للسماء، وهي تشدهما إلى صدرها. - كيف لها أن تتصرف، وما العمل، علمني ما عليّ فعله؟ وإذا عثروا على البقرة لكان الأمر جيداً، ومن أجل هؤلاء الأطفال، وعندها سيعود الناس إلى القرية! آه، أيها الخالق أعد البقرة للأيتام. أرجوك، وأصلي إليك. فأنا أيضاً أم وعندي أطفال فأرجوك وأتضرع إليك أن تحقق هذا من أجل طفلي!".

ومن تل إلى تل آخر، وفي الوهاد، كانت تركض سعيدة، والدعوات المتنوعة كانت تنطلق من شفتيها عسى السماء أن تستجيب. وبعد قليل طوقتها فكرة من كافة الجهات، وأحاطت بتفكيرها كله: إذا وجد الناس البقرة، فإن الشعب سيعود إلى القرية. وفي هذا يكون الإنقاذ الوحيد لها حتى تكون راضية. وهذا يعني من اللازم إيجاد البقرة، وبأسرع وقت ممكن، وإن كل دقيقة هي ثمينة، من أجل تحقيق هذا الهدف.

جمعت سعيدة قواها، وانطلقت راكضة إلى الأمام، وأخذت تنظر إلى تحت كل شجرة أو شجيرة، وخلف كل صخرة، وسارت بين الأشواك، وهي ترفع ثوبها، ولكن لم تجد أية آثار للبقرة. وفي الضباب الشديد، أخذت المنحدرات تبدو مظلمة حول تل القبر القديم المهدم. ربما تكون البقرة قد اختفت هناك؟ انتظري، كأن هناك شيء ما؟ يشبه الحيوان الجالس. نعم، نعم، في الحقيقة إنه يشبه! إنها بقرة سوداء مبرقشة! نعم، يا إلهي، هذا هو في واقع الأمر!

ومن المفاجأة، رشفت سعيدة من الهواء وتأوهت من التعب ثم توقفت: لقد عجزت رجلاها عن الوقوف، ومباشرة وجدت الحل: "الآن سأذهب إلى التل الكبير، وسأنادي الشعب من هناك، حتى يرجع الجميع إلى القرية، وسآخذ البقرة إلى ساحة بيت توتوي، وأربطها في الملحق. وعسى أن تكون فعلاً هي البقرة... أو أن هذا من التخيل أو التصور الكاذب؟".

اجتهدت سعيدة، وجمعت قواها، وهي تركض نحو القبر القديم وعندما اقتربت... كادت تموت في مكانها. فهذه ليست بقرة، بل قطعة من المدخنة المهدمة قد هبطت فوق أرض الساحة.

وهكذا انسحب الضباب، وانتشر فوق مساحة واسعة من الأرض، وفي الخراب هب ريح ربيعي ومع صفائح ثلجية مبعثرة، وداعب رؤوس الأشجار، التي نمت بأغصان طويلة تميل إلى البياض قليلاً، وغطت الفروع الأصلية بالأوراق الطرية الحديثة، التي ظهرت للنور منذ فترة قصيرة.

في المساء، بالكاد تمكنت سعيدة من تحريك رجليها حتى وصلت إلى البيت في القرية، وقبل أن تدخل إلى بيتها ألقت نظرة باتجاه بيت توتوي، فوجدت باب الملحق المخلوع ما زال مفتوحاً كالسابق على مصراعيه، وساد في الملحق فراغ مزعج وقاتل.

في البيت أخذ الطفل يصرخ، ملء رئتيه. وكما يتضح أنه استمر في البكاء طيلة النهار: وأغلق عينيه، ولم يظهر إلا البياض فيهما، واشتد تنفسه جداً، حتى أصبح حاداً أو فيه شيء من البحة، والغصة الناشفة. ولكن الثدي كان كالحجر متوتراً، ولم ينزل منه قطرة حليب، ومهما حاولت سعيدة أن تضغط وتستحلب ثديها، فلم تتمكن من توفير الحليب لطفلها، ولقد شعرت أنها عاجزة كلياً عن إعطاء الحليب، مهما قامت بالتدليك، وحتى فكيها كانا يصطكان، ويصران كفكي الفرس، التي يضعون السرج عليها، ويشدون الحزام تحت صدرها بقوة، بعد أن تركوها ليلة كاملة في البرد وبعد أن نزعوا السرج عنها، وتجمد جسمها وجف عرقها حتى النهاية.

جلس الجميع صامتين: سعيدة وابنها في زاوية، والعجوز في زاوية أخرى. ولم تكن لدى سعيدة القدرة على التحرك وإشعال النار، وأصابها نوع من الجمود الكلي، حتى أن روحها قد جمدت كلياً من البرد، وكأنها في قبضة من جليد، وشعرت أنها أسيرة في سجن

أحادي، ولقد أنهكت قواها وأرادت أن تطبق عينيها. وضعت ابنها في السرير، واضطجعت على الأرض دون أن تخلع ثيابها.

استيقظت سعيدة في الليل على طرقات فوق النافذة. فزعت جداً عند الاستيقاظ من النوم وبالكاد كتمت نفسها عن الصراخ: "من هناك؟"، وكأنها أدركت، أن إسماعيل قد جاء. ولقد خافت جداً: "في القرية استنفار، لماذا جاء في هذه الليلة فالوضع سيئ للغاية، يا إلهي!".

نهضت سعيدة من فراشها، فتحت الباب، وهمست على عجل:

- ادخل بسرعة، الوضع في القرية سيئ.

أسرعت، وأطبقت الباب وأحكمت إقفاله، وأدخلت إسماعيل إلى الغرفة، أنزلت الستائر على النوافذ. وأرادت أن تشعل السراج، ولكن ثمة شيء ثقيل وقع على الأرض بعد أن أهبطه إسماعيل. أصيبت سعيدة بصدمة كمن صب عليها ماءً بارداً! وتصورت أن قلبها وقع على الأرض. أخذت ترتجف، فجلست، وتلمست ما حولها فوقعت يدها على كيس فيه شيء طري، وثقيل: هذه كانت صرة لحم.

- هذا يعني أنك أنت! - صرخت سعيدة متشنجة، وانقبضت أعصاب حنجرتها، حتى فقدت الصوت كلياً.

- اصمتي! - برقت عينا إسماعيل في الظلمة. اقترب منها وزفر بقوة في وجهها، - اخرسي فهذا ليس من شأنك.

صمتت سعيدة. وأصيبت بدوخة في رأسها، وكأن أحداً قد دفعها على صدرها بخشونة قاسية. فجلست على الأرض، واستندت على يديها حتى لا تهوي وتقع على الأرض وكانت لديها رغبة واحدة: أن تخرج من البيت على طرف من السرعة، وتأخذ تصرخ وتركض حيث تقودها رجلاها إلى مكان لا ترى ولا تعرف فيه أناساً من هذا

النوع. ولكن لم تساعدها قواها على النهوض، وحتى أنها لم تعد قادرة على الصراخ، أو الكلام. ولقد عادت إلى الوعي على صوت إسماعيل، وهو يصرخ في وجهها:

- ماذا بك تجلسين، أشعلي النور!

لم تتحرك سعيدة من مكانها.

- أقول لك، أشعلي النور!

شاهد إسماعيل، أن سعيدة أخذت تزحف نحوه على ركبتيها...

- أنت... كان من الأفضل أن تذبح عجلتنا!...

- يا لك من مجنونة! - أمسكها إسماعيل بخشونة من كتفها، وشدها إليه. - ماذا تثرثرين، لست أنت من سيعلمني ماذا أفعل! فإذا أصبحت الحياة تسير حسب شريعة الذئاب، فعليَّ أن أكون ذئباً! كل واحد يعمل لنفسه!.. حتى أحصل على الطعام، الذي يلزمني... وما شأنك بالآخرين؟ ولو مت من الجوع، فلا تجدين من يطعمك ملعقة واحدة، ويملأ فمك. وكل واحد يجتهد لنفسه! ومن ينتزع قوته بالقوة، هو الذي يأكل!

لم تجب سعيدة بشيء. وأنزلت يد إسماعيل عن كتفها، وأمسك بياقة ثوبها، فهنا انكمشت على نفسها. فهز المتوحش زوجته بقوة مؤنباً، وشخر في وجهها، ففاحت من بوزه رائحة اللحم النيئ تقريباً، وحتى النيئ كلياً.

- ما بك صامتة، آ؟ أنا أسألك: ما بك تصمتين؟ لو أنني ذبحت عجلتنا، فمن أين ستحصلين على الحليب للطفل؟ أو إن الأولاد الغرباء هم أغلى بالنسبة لك من ابنك؟ وكيف سيكون الأمر، إذا انتقلنا إلى تشاتكال؟ فهل تفكرين أنت بهذا، أم لا، آ؟ لقد بقيت مدة تعد بالأيام، وأنت ترغبين لي الموت من الجوع في هذه المغارة؟ أو أن الآخرين

أقرب لك مني؟ بالطبع، لن أتحمل أكثر، لقد صبرت طيلة فصل الشتاء، وأنا أرتجف من البرد، فالآن يكفي هذا... سأقوم بعمليات السطو والنهب، فأنا لم أهرب من الجيش، حتى أنبح كالكلب! أنا لست بمجنون، ولست مستعد للموت كالحيوان الرخيص!

في ساحة البيت، صاح الديك. لقد حان الوقت للخروج. اقترب إسماعيل من النافذة، أصغى السمع، وهو يخفي السيجارة في قبضة يده، ثم قال لها:

- ما بك! لقد فقدت القدرة على الكلام؟ أخفي اللحم في مكان بارد، واسلقي ما ترغبين به في الليالي، أما العظام، عليك أن تخفيها في حفرة عميقة في الملحق، حتى لا تشم الكلاب رائحتها، وتقوم بنبشها!- نفث الدخان مرة أخرى، فبدا النصف السفلي من وجهه أحمر، وظهر لمعان شرير، ومن الظلمة برزت شفتاه الرطبتان، وأنفه المتوحش. ثم قذف عقب السيجارة على الأرض، وفركه برجله وخرج.

وكلما أصبح النور أكثر من الظلمة خلف النافذة، باتت معالم المرأة الشابة الشيباء. وبدا الأمر، وكأنها تفكر أين تختبئ الظلمة من هذا النور القادم لنهار جديد. ضمت سعيدة الطفل إلى صدرها، بينما كانت تنظر، وتنظر إلى النافذة، دون أن تزيح نظرها. فهناك خلف هذه النافذة الصغيرة، عالم كبير، وقرية واسعة، وشعب. وهناك يعيش الجيران توتوي مع أولادها الثلاثة. وكذلك ميرزاكول ذو اليد الواحدة، وإسماعيل كذلك.. نعم، آ، إسماعيل أيضاً... "كلا، أنت لا تشبه أولئك... فهنا، من المصيبة أن يترك شعبه، وبإرادته، أو بلا إرادة منه ليصبح عدواً للشعب! فلم أتمكن من الحفاظ على نفسي من كل هذا، ولو أردت لما تمكنت أن أتجنب المصائب!...".

ثمة إنسان تنهد بصعوبة وحسرة. وفقط الآن لاحظت سعيدة العجوز حماتها. كانت تجلس في الزاوية، وهي تتكئ بذقنها على ركبتيها الضعيفتين الحادتين، وكذلك كانت تنظر إلى النافذة وهي معذبة تبحث عن بصيص نور. وكانت نظرتها تعكس داخلها المأساوي المعذب الأليم. بالطبع سمعت كل الأحاديث، التي دارت في الليل بين سعيدة وزوجها.

جهزت سعيدة نفسها. ووضعت لوازم الطفل وثيابه في صرة، وارتدت الفروة، وربطت الزنار بصورة محكمة على خصرها، كما تفعل جارتها توتوي.

- هل أنت ذاهبة إلى أهلك؟ - سألت العجوز بهدوء.

- نعم إنني مغادرة، - أجابت سعيدة. بينما أحنت العجوز رأسها على ركبتيها كئيبة.

توقفت سعيدة إلى جانب الباب، وفكرت بعمق، وهي تحمل ابنها فوق يديها. كان نائماً، وينعم في أنه لا يرى شيئاً، ولا يفهم شيئاً، وتحرك قليلاً برأسه، عندما سقطت دمعة ساخنة على وجهه كانت تذرفها أمه بصمت. ثم رفعت سعيدة المخلاة، التي تحتوي على اللحم، وضعتها على كتفها، وخطت بتصميم إلى خارج العتبة.

في هذه المرة لم تحاول العجوز أن تطلب من سعيدة أن تعود إلى البيت، ولم تقع على ركبتيها راجية إياها أن لا تتركها وحدها.

بعد بعض الوقت، خرجت العجوز من البيت أيضاً دون أن تغلق الباب، وسارت ببطئ إلى حيث ترى عيناها طريقاً أمامها، بلا تحديد خارجة من القرية بعيداً.

سارت سعيدة عبر طريق، كان قطيع من الأغنام قد مر عليه، وبالكاد قد لاحظت آثاراً له. وخلفها سار ميرزاكول مع جنديين يحملان بنادقهما راكبين خيولهم.

وقبل ساعتين أعطى قائد الحرس الحربي أمراً للجنود أن يتوجهوا إلى قرية مجاورة، حسب توجيه رئيس مجلس الريف. بينما اتجهت سعيدة إلى المضيق الأصغر إلى الرعاة. وهي لن تعود بعد الآن إلى هذه القرية.

تحدث الجنود فيما بينهم:

- اسمع، هذه المرأة، هي نفسها، التي أحضرت لحم البقر؟

- نعم، أعتقد أنها هي.

- يبدو أنها تتعقبه. رائعة هذه المرأة! ولكن، ولأي شيطان تأخذ هذا الطفل معها؟

- ومن يعرف بماذا تفكر! يا لها من إنسانة غريبة، أقسم بالله؟

- باشر رئيس المجلس بالكلام لها: اركبي على الحصان، فأنت معك طفل. أما هي فلم تقل شيئاً، استدارت ومشت... يبدو أنها تعتز بنفسها كثيراً...

عندما وصلوا إلى مكان المنحدر المنكسر، الذي نمت فيه الحشائش الطويلة والشجيرات البرية، نزلت سعيدة إلى الأسفل، وتوقفت عند المنعطف.

- هناك خلف القصب! - أشارت هي بيدها، وانحسر الدم من وجهها. وهي لا تدرك، ماذا تفعل، فكت الصرة، التي كانت تعلقها بمنديل على رقبتها، جلست على الأرض وأعطت ثديها للطفل.

أما الجنود فقد ساروا بحذر خلف ميرزاكول، وعندما اقتربوا

من القصب، حاول ميرزاكول أن ينزل عن صهوة حصانه، وفي هذه اللحظة هدر صوت قوي، وبان إسماعيل بشعره الأشعث، ووجهه الإجرامي:

- إيه، أنت يا ميرزاكول! عد إلى الخلف! بالنسبة لي سأموت على أي حال، ولكن إذا لم ترغب بالتراجع، فإن الأذى سيلحق بك! سأرميك قتيلاً! أخرج بعيداً من هنا!

- ارفع يديك عالياً! استسلم! - صرخ ميرزاكول به، وانطلق بحصانه إلى الأمام متجهاً نحو إسماعيل.

انطلقت رصاصة عند المضيق. وقعت سعيدة على رجليها، وهي تشاهد، كيف كاد ميرزاكول أن يقع عن صهوة حصانه، وكيف كان يرتعد ويرتجف، وهو يحاول أن يتشبث بيد واحدة بعرف عنق الحصان، وكيف كان جذر اليد المبتورة يتحرك داخل كم المعطف بلا جدوى. ثم هوى ميرزاكول إلى الأرض، وبدا كالجثة الهامدة.

في هذا الوقت فتح الجنود النار من بنادقهم، فأجاب إسماعيل برشقات، وبرصاصات متقطعة. وفوق المضيق، وباتجاه الجبال أخذ صدى الرصاص يدوي.

وفجأة صرخ أحد الجنود بصوت لا يشبه صوته الأساسي:

- إيه، يا مارجا![1] إلى أين أنت سائرة؟ إلى الخلف، أقول لك! سيقتلك!

- حملت سعيدة ابنها على يديها، وهو يستند إلى كتفها، وسارت إلى الأمام نحو القصب، الذي اختبأ فيه إسماعيل. كانت تسير بكل هدوء وثبات، تقدمت، وكأنها لا تأبه بأي تهديد.

---

[1] مارجا - مشتقة من اسم "ماريا"، وهكذا تخاطب المرأة في قرغيزستان، في حال عدم معرفة اسمها الأصلي.

لقد أطبقت شفتيها حتى النهاية، وفتحت عينيها على وسعيهما، ونظرتها كانت ثاقبة، وفيها تأججت مشاعر القوة الداخلية. إنها كانت امرأة، تثق وتؤمن بالعدالة، وتعرف أنها على حق. واقتربت خطوة فخطوة بثبات نحو القصب. كان تبادل إطلاق النار يتم على أشده. وهي لم تعلم بما كانوا ينادونها به من الخلف، ولم تعرف ما عليها أن تفعل:

- إلى الخلف! تراجعي إلى الخلف!

ولكن سعيدة لم تنصاع لصراخهم، وكأنها لم تسمع شيئاً.

ولبرهة من الزمن، خيم على الساحة صمت وهدوء قاتل لا قاع له، وصفدت الجبال بسلاسل عاتية. وكان الجنود مختبئين خلف الحجارة، بينما كان ميرزاكول ممدداً على الأرض، وكأن أصابع يده السليمة ترتجف، وتتحرك قليلاً. وبالقرب كانت الصخور العالية معلقة من جهة الانكسار، وذرى الجبال البعيدة - كل شيء جمد في انتظار متوتر للغاية. وها هو، الآن سينفجر البركان، وتخرج رصاصة تصيب المرأة وطفلها على يديها، وتسقط على الأرض.

ولقد خرق ريح قوي هذا الهدوء المخيف، وعصف كموجة عاتية في رؤوس القصب، وهب على وجه سعيدة، ثم نزع المنديل عن رأسها وكتفيها. وحتى الآن، لم يتحرك أو ينتفض أي عصب في وجهها. فالغضب والتصميم قد أديا بها إلى أن تسير إلى الأمام فقط، ورأسها مرفوعاً إلى الأعلى، وهي تضم طفلها إلى صدرها، وسارت غير خائفة، من أجل المثل والقيم العليا.

- توقفي! توقفي! - صرخ الجنود يائسين من موقفها.

حمل الجنود بنادقهم وانطلقوا خلف سعيدة. وفي هذه اللحظة

خرج إسماعيل من بين القصب. وكان في معطف رمادي ممزق، ووجهه ممتقع، ومنحرف إلى جهة واحدة، ومعذب للغاية، والشعر قد طال على وجهه، ومن صوبه جاءت رائحة كريهة ونتنة. والكراهية كانت تخنقه، رفع بندقيته حتى يستعملها كهراوة، وهجم على زوجته كوحش مفترس.

أصبحت المسافة تقصر وبسرعة بين الزوج وزوجته. وها هما يقفان على مسافة قريبة جداً وجهاً لوجه. فرأى إسماعيل زوجته مختلفة كلياً عن تلك، التي عرفها سابقاً: فهي الآن شيباء الشعر، ورأسها بلا غطاء، ووقفت أمامه غير خائفة، وهي تحمل ابنها على يديها. وبدا له، أنها تقف شامخة، عالية لدرجة الرفعة الخيالية، لا تطالها يده ولا بندقيته في شموخها وعظمتها التراجيدية، أما هو فكان مستضعفاً واهناً، ومنحطاً أمامها.

تأرجح إسماعيل، وقذف البندقية في وجه الجنود المهاجمين، ثم رفع يديه.

صدر للمؤلف والمترجم
الدكتور ماجد علاء الدين

أ. ترجمة إلى اللغة الروسية عن العربية:

1. "عائد إلى حيفا" رواية من تأليف غسان كنفاني، موسكو 1974. وأعيدت طباعتها مرتين، وصدرت على حلقات في مجلة "آسيا وأفريقيا اليوم" بمئات ألاف النسخ.
2. مجموعة دراسات ومقالات عن الأدب العربي منشورة في المجلات والصحف الروسية بين أعوام 1973- 1980.

ب. ترجمة إلى العربية عن الروسية
في مجالات السياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع:

1. "أكتوبر وحركة التحرر الوطني"، مجموعة باحثين، دار ناؤوكا، موسكو 1975.
2. "كمب ديفيد سياسة مصيرها الفشل"، تأليف أ. زاخاروف - أ. فومين، دمشق ط1 1984- ط2 1985.
3. "البلدان النامية والعلاقات الاقتصادية الخارجية"، تأليف بورتيانيكوف، دمشق 1985.
4. "الأخوة كينيدي"، تأليف أ. غروميكو، دمشق 1986.
5. "مذكرات عن الانقلاب العسكري الأسباب والنتائج"، ميخائيل غورباتشوف، دمشق 1992.

6. "القتلة على الرمال البيضاء"، أناتولي آغارشيف، دمشق 2000.
7. "ستالينغراد ملحمة العصر"، ف. تشويكوف، دمشق 1995.

ج. روايات وقصص قصيرة:

1. "النطع" رواية من تأليف جنكيز أيتماتوف، دمشق 1984.
2. "الأقصوصة السوفييتية المعاصرة"، دراسة وقصص مختارة، دمشق ط1 1983، ط2 1984، ط3 1985.
3. "محاكمة سقراط"، تأليف يوري فانكين، دمشق 2002.
4. "أحلام إيفان المأساوية"، رواية من تأليف الدكتور ماجد علاء الدين، دمشق .2002
5. "بؤس الشيطان"، بريم ستوكر، ترجمة مشتركة مع نايف أبو كرم، دمشق 2002.
6. "الواقعية في الأدبين الروسي والعربي"، دراسة أدبية من تأليف الدكتور ماجد علاء الدين، دمشق ط1 1984، ط2 2015.
7. "الأرض الأم"، تأليف جنكيز أيتماتوف، دمشق 2016.
8. "حورتي في منديل أحمر"، تأليف جنكيز أيتماتوف، دمشق 2016.
9. "السفينة البيضاء"، تأليف جنكيز أيتماتوف، دمشق 2016.

د. شعر مترجم وقصص مختارة عن الروسية إلى العربية:

1. الضفدعة السائحة، غارشين، دار التقدم، موسكو 1975.
2. "مختارات من الشعر الروسي" (دراسات وقصائد مختارة)، دمشق 1984.
3. مغامرات بوراتينو، تأليف ألكسي تولستوي، دمشق 1984.
4. "المرآة والقرد"، تأليف أ. كريلوف، دمشق 1985.
5. "الوقواق والديك"، تأليف أ. كريلوف، دمشق 1985.

6. "الذئب والثعلب"، تأليف أ. كريلوف، دمشق 1985.
7. "تيمور وفريقة"، قصة للناشئة، أ. غايدار، دمشق 1986.
8. "ملحمة الزمن" ديوان شعري، أناتولي سافرونوف، دمشق 1986.
9. "رموز مقدسة"، مجموعة شعرية، تأليف ن. ريريخ، دمشق 1993.
10. "الروح الشريرة"، تأليف ميخائيل ليرمنتوف، دمشق 2002.

هـ. ثقافة عامة:

1. "صفحات مجهولة من حياة تولستوي"، ترجمة إلى العربية، دمشق 1986.
2. "قصص من حياة دوستويفسكي"، ترجمة إلى العربية، دمشق 1985.
3. "ذكراه في القلب والدة رائد الفضاء الأول تروي قصته"، آنا غاغارين، ترجمة إلى العربية، دمشق 1987.
4. "دليل السائح الروسي"، تأليف الدكتور ماجد علاء الدين، دمشق 1992.
5. "الأجسام الطائرة المجهولة"، أ. كوزوفكين، ترجمة إلى العربية، دمشق 1994.
6. "سويداء سورية (موسوعة شاملة عن جبل العرب)"، مشاركة مع مجموعة من المؤلفين، دمشق 1995.

و. قيد الطباعة:

1. "بناة الأهرامات ما زالوا شباباً" - رواية.
2. "مئة مفكر عظيم" في ثلاثة أجزاء، ترجمة عن الروسية.
3. دراسات في النقد الأدبي وعلم اللغة الروسية وآدابها.
4. سيرة حياة عامة...